أسطورة إسرائيل تتبدّد

أديب اللجمي

ثمة اعتقاد ما زال مترسخاً في أذهان كثير من الساسة والمسؤولين العرب، خلاصته أن الدعوة للقضية العربية في أوساط الرأي العام الغربي، قضية خاسرة سلفاً، لأسباب كثيرة يرد ذكرها كدليل على صحة هذه الدعوى، وأهمها :

أولاً – أن الصهيونية مستولية عملياً على وسائل الاعلام في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وأن الوسائل التي لا تقع تحت سلطانها مباشرة، تحسب للسياسة الصهيونية حساباً تاماً، بحيث لا تبيح لنفسها أن تقف منها موقفاً معادياً. وكدليل على ذلك يؤتى بمئات الامثلة المشخصة عن ملكية المؤسسات الصهيونية أو الأشخاص الصهيونيين لشبكات اذاعية وتلفزيونية وصحفية، ولمؤسسات اعلانية تعمل بمئات الملايين بل بمليارات الدولارات، وتستطيع بما لها من نفوذ وتأثير على الرأي العام أن تشهر وتلحق الأذى بكل شخص أو هيئة اجتماعية أو اقتصادية يحاول التنديد بها أو الطعن باسرائيل، أو بمجرد الانتصار للحق العربي. فكيف يمكن للدعوة العربية أن تنفذ الى الناس عن طريق هذه الأجهزة ؟

ثانياً – أن الغرب كغرب يضمر حقداً تاريخياً للشرق كشرق ، وأن الصراع بينهما ليس وليد القرن العشرين ولا التاسع عشر بل يرتقي إلى عصور طويلة خلت ، وهو ما زال قائماً ، يتخذ أشكالاً تختلف من قرن الى آخر ، ومن ظرف الى آخر ، مثلما تختلف تبعاً للبلاد التي يجري الصراع معها ؛ بيد أنه يظل صراعاً مستهدفاً ، بصورة اجمالية ، استمرار سيطرة الغرب على الشرق ، واستمرار استغلاله لخيراته ، ودعمه بكل قوة تعمل على اعاقة تطور الشرق . فالصهيونية بحكم كونها حركة تنشد الاستيلاء على الأرض العربية ، وتهجير العرب – السكان الأصليين – من ديارهم ، يباركها الغرب ، بل ويشجعها ويحميها . فلا سبيل إذن أمام العرب لأن يوصلوا صوت الحق الى أسماع شعوب الغرب .

ثالثاً – أن أكثر حكومات الغرب أداة طيعة في يد الصهيونية ، تستخدمها هذه لتحقيق أغراضها ، وبخاصة فيما يتعلق بمخططاتها في الوطن العربي . فكم من وزير للخارجية والدفاع ، وكم من حكومة في هذا البلد أو ذاك كانوا وما يزالون يدعمون بمختلف الوسائل مطالب اسرائيل ، وكلها مناهضة للحق العربي ، ومنافية لأبسط قواعد الحقوق الدولية ، وأكبر مثال على ذلك ما جرى في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، حين فرضت دول الغرب العظمى على أكثرية الدول الاعضاء في المنظمة الدولية أن تصوت لقرار تقسيم فلسطين ، وإقامة دولة صهيونية في أحد القسمين . فكأن الصهيونية العالمية هي التي « تصنع » حكومات الغرب أو « تشتري » الحكومات وكبار المسؤولين في الغرب لمصلحتها . فمن المستحيل ، والحالة هذه أن يتمكن العرب من ايصال ظلامتهم الى الرأي العام الغربي ، لأنها ستصطدم حتماً بالسد الحكومي الواقف أمامها .

رابعاً — ان الدعاية التي تمارسها الصهيونية العالمية لدى أوساط الرأي العام الغربي لدعم قضيتها ، والتنديد بالعرب وإظهارهم بمظهر المتخلفين الذين يعيشون الماضي السحيق في حاضر حضاري ، هي دعاية طويلة الأجل ، بدأت في مطلع هذا القرن ، وما تزال تتسع ، وتشمل ميادين مختلفة ، وتفيد من وسائل النفاذ والاقناع ، وتعتمد على أنجع التطبيقات السيكولوجية ، بحيث أن الرأي العام الغربي قد تبلورت لديه قناعة مفادها أن فلسطين حق للصهيونية ، وأن على العرب أن يسلّموا لها بذلك ، وأن يتدبروا أمر اللاجئين بتوطينهم في الأقطار العربية ، وفي الصحراء اذا اقتضى الأمر .

فحكم الرأي العام الغربي على العرب ولصالح الصهيونية هو إذن قطعي ؛ وعبثاً نبذل ، نحن العرب ، أيّ جهد في سبيل تبديله أو تحويره .

وهناك أسباب أخرى يضيفها القانطون من شعوب الغرب الى تلك التي ورد ذكرها ، وكلها تلتقي في النتيجة التالية : لا جدوى من « العمل » في الرأي العام الغربي ، لتعريفه بحقيقة اسرائيل والصهيونية من جهة ، وبحقيقة العدوان الذي وقع على العرب واستمر حتى الآن ، من جهة ثانية .

ولو أن القنوط من كسب الشعوب قد وقف عند هذا الحد لكانت المشكلة نصف مشكلة . ولكن اليأس من الإقناع ومن جدوى التعريف بالحق العربي ، قد ساق كثيرين من المسؤولين العرب الى نتيجتين أخريين خطيرتين تستحقان دراسة مطولة لا مجال الآن للافاضة فيها بل نكتفي بايرادهما بشكل موجز ، على أن نعود اليها في مناسبة أخرى . هاتان النتيجتان هما :

آ — ان القيادات العربية أصبحت تدين شعوب الغرب بالدرجة ذاتها التي تدين بها الصهيونية ، وتعتبر هذه الشعوب مسؤولة عن قيام اسرائيل الدولة كما

لو كانت هذه الشعوب هي الصانعة لاسرائيل . فانصب عليهـــا هجوم كاسح من أجهزة الإعلام العربي طوال العشرين سنة الماضية ، ولم تخف حدته الا مؤخراً ، دون أن يزول كلياً .

ب - أن شعور العرب بالظلم الصارخ الذي وقع عليهم من جراء تغلغل الصهيونية في فلسطين وإقامة اسرائيل فيها ، وتشريد أبناء فلسطين من أرضهم ، ثم استمرار الاعتداءات الاسرائيلية على الأرض العربية والتوسع الاسرائيلي على حساب دحر العرب ، كل ذلك أدى بشكل او بآخر الى أن تفقد أجهزة القيادة والإعلام قسطاً كبيراً من الحصافة وضبط النفس ، فارتفع لديها المعدل الانفعالي وهبط التقدير الفكري المنطقي ، واندفع بعضها فيما يشبه الصراخ بالدعوة الى إبادة الصهاينة ورميهم في البحر ، وغير ذلك من التعابير الحماسية الانفعالية - وأبانت الأحداث فيما بعد انه لم يكن هناك قدرة فعلية لدى أحد من البلاد العربية على تحقيق شيء من ذلك بحيث ظهر العرب من خلال هذه الصرخات ، لا شعباً يطالب باستمرار حق ، ويبتدع الوسائل الناجعة لاستعادته - وسائل الاقناع للعالم الخارجي ووسائل الردع الجدي للعدو الاسرائيلي - بل شعباً أظهرته أجهزته الاعلامية وكأنه يكره الشعوب كلها ، ويحقد على الناس اجمعين .

ولا يجهل أحد منا مدى الاستغلال الذي قام به الأعداء لهذه الشعارات والمواقف ، ومدى الأذى الذي لحق بقضيتنا ، بل ومدى العطف الذي كسبته اسرائيل نتيجـــة لذلك . إذ لم يبق هذا مجرد تعاطف معنوي ، بل تحوّل الى تظاهرات شعبية على مختلف المستويات ، تؤيد أبناء اسرائيل المهدّدين « بالذبح » وتجمـــع التبرعات لهم ، وتضغط على حكومات الغرب لكي تهب لنصرة الاسرائيليين ؛ كل ذلك في الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تعبىء كل ما لديها

من طاقات بشرية ومادية وعسكرية لتزج بها في عدوان جديد مبالغ على العرب، يؤول الى احتلال ارض عربية جديدة ، وإلى تشريد أفواج جديدة من أبنـاء الشعب العربي . كان الاعلام الاسرائيلي وما زال يتجه في الخارج لا الى ملء الفراغ الذي تركه الاعلام العربي وحسب ، بل وإلى الإفادة كلياً من الأخطاء الضخمة التي وقع ويقع فيها هذا الإعلام كلما حاول أن يمارس نشاطاً لدى الرأي العام العالمي .

* * *

وقد فات الكافرين بجدوى أي ايضاح للموقف العربي لدى شعوب الغرب عدة وقائع ، منها :

١ ـ أنه لا بد من التمييز ـ بصورة خاصة في بلاد الغرب ـ بين أنظمة الحكم والشعوب. فكثيراً ماتكون أنظمة الحكم عدواً حتى لشعوبها ، أو لفريق من شعوبها ، واذا كانت حكومات الغرب ، أو أكثرها ، مؤيدة لاسرائيل ـ وهي أصلاً حكومات ذات طابع رأسمالي أمبريالي ، جشعها للثروات العربية معروف ومكشوف ـ فمن المرجح أن تكون شعوبها ضد سياستها . ولقـد برهنت هذه الشعوب في أكثر من مناسبة تاريخية كبرى عن معارضتها لسياسة حكوماتها الامبريالية : في مناسبة حرب الهند الصينية، وحرب الجزائر، وثورات التحرر الافريقية (وذلك فيما يتعلق بموقف الشعب الفرنسي من الامبريالية الفرنسية) . ذلك أن الامبريالية ليست سياسة شعب ، بل سياسة طبقة حاكمة مستغلة ، وليست سلوكاً يتجه الى الخارج وحسب ، بل هي لا تميز في منطقها الاستغلالي بين ابناء الوطن وأبناء الأوطان الأخرى. ان الامبريالية ، بحكم التعريف ، لا وطن لها . فمنذ أن اكتشف كبار المحتكرين الفرنسيين مناجم الصلب في

موريتانيا ، عملوا على الحصول على امتيازات استثمارها، وبالتالي اغلقوا كثيراً من مناجم الصلب في منطقة اللورين بفرنسا . وترتب على ذلك بطالة عشرات الألوف من العمال الفرنسيين ، دون أن تأبه لذلك الحكومة الفرنسية . كل ذلك حدث منذ سنوات غير بعيدة .

٢ - أن حكومات الغرب ، بما تملكه من وسائل الاعلام واجهزة التأثير على الرأي العام، هي التي تضلل شعوبها ، وتلقنها أحياناً الأكاذيب على أنها حقائق. فالشعوب لا سياسة لها ، أو بالأحرى اذا كانت لها سياسة ، فهي سياسة تنادي بالتحرر والتقدم . ولم يكن الاستعمار من صنعها هي ، بل من صنع الطبقة الرأسمالية وحدها . فمن الممكن إذاً جعل الشعب يقف في وجه حكوماته وينتصر للحق العربي ، فيما لو أحسنّا عرض قضيتنا وحقنا . وهذا هو جوهر الموضوع .

٣ - أن ثمة منظمات وافراداً من شعوب الغرب يقفون اليوم فعلاً موقف المؤيدين للقضية العربية - باعتبارها قضية عادلة - وفي الوقت ذاته يندون باسرائيل كقوة عدوانية في يد الامبريالية العالمية .. ان عدداً كبيراً من المنظمات العمالية والاحزاب التقدمية والاشتراكية في اوروبا الغربية تساند اليوم كفاح العرب والمقاومة العربية ، والعمل الفدائي العربي، لأنها تعتبر المعركة التي نخوضها جزءاً من معركة التحرر الكبرى التي تخوضها سائر الشعوب ضد الامبريالية والاستغلال، وفي سبيل التحرر والتقدم .

* * *

كان لا بد إذن من أن نعيد تقييم الأمور ، وأن نعيد دراسة الموقف العربي ازاء حاجتنا الى أن يعرف الغرب الشعبي حقيقتنا ، وأن نقدم له وجهة نظرنا بصيغة نكسب فيها تأييده ودعمه ، ونبدد معها اسطورة اسرائيل التي تعبت

الصهيونية في ترسيخها في أذهان شعوب الغرب ، وجعلت هذه الشعوب تنظر الينا كما لو كنا نحن المعتدين لا المعتدى علينا .

إننا نركز على شعوب الغرب ، لأنها هي المضلَّلة من حكوماتها ومن أجهزة التأثير الصهيونية . أما البلاد الاشتراكية ، فهي معنا حكومات وشعوباً.

ولكي نتمكن من تبديد الأسطورة الاسرائيلية لدى الغرب ، لا بد من أن ننطلق من وقائع أساسية ، أهمها :

– الاعتماد على المنظمات والهيئات التقدمية في كل بلد غربي ، وتوثيق صلاتنا معها بمختلف الأشكال ، والاكثار من تنظيم لقاءات بينها وبين المنظمات والهيئات التقدمية العربية ، ذلك ان هذه هي الركيزة التي يمكن أن تنطلق منها وجهة النظر الغربية انطلاقاً سليماً . ان المنظمات النقابية والسياسية التقدمية في اوروبا الغربية – فرنسا ، ايطاليا ، انكلترا ، المانيا الغربية ، وسواها – هي أقوى سائر المنظمات الأخرى المماثلة ، كما أن صلتها بجماهير الشعب صلة عضوية حميمة .

– ان اسرائيل ، ومن ورائها الصهيونية ، كانت وما تزال هي المعتدية على العرب ، وهي البادئة بشن الحروب ضدهم ، وهي السائرة في تنفيذ مخطط توسعي على حساب الشعب العربي وأرضه ، وهي المتحالفة كلياً مع الامبريالية العالمية التي أخذت ترى قواعدها ومصالحها في الوطن العربي تندك واحدة تلو الأخرى نتيجة الحركة التحررية العارمة التي انطلقت من جماهير الشعب العربي ، فجعلت هذه الامبريالية من اسرائيل اداة قمع وتعويض للمد العربي الثوري .

ان القوى التقدمية في الغرب تفهم جيداً هذه اللغة ، وتستطيع بالتالي فيما لو أحسن تقديم الحقيقة لها ، ان تقتنع بعدالة المقاومة العربية ، كما يمكن ان

تتحول فيما بعد ، وبنتيجة الاتصال والتفاعل العربي معها ، الى قوة ايجابيــة في مساندتها للحق العربي ، وشجبها للتسلط الاسرائيلي .

• • •

من هذه الزاوية يمكن ان ندرك الفائدة اللا متناهية التي حصلنا عليهـا ، نحن العرب ، من الاسبوع الاعلامي الذي نظمه في مختلف مدن فرنسا ، الاتحاد العام للشغل الفرنسي C.G.T لاتحاد العمال العرب ، كي يقوم هذا الاخير بعرض وجهة النظر العربية ، ووجهة نظر العمال العرب — بصورة خاصة — حول القضايا التي تهمهم .

وضع الاتحاد العام للشغل الفرنسي ، لهذا الغرض ، برنامجاً دقيقاً ، اتاح فيه لرسل العمال العرب ، ان يتصلوا على اوسع نطاق ممكن ، بالقيادات النقابية العمالية التقدمية ، وبالمناضلين النقابيين الاشتراكيين ، وان يقيموا معهم حواراً اخوياً صريحاً كل الصراحة حول ما يقلق العرب عامة ، والعمال العرب التقدميين — جميع العمال العرب مفترض بهم ان يكونوا تقدميين اشتراكيين لأن ذلك هو معيار تحررهم — .

وكان اللقاء حاراً وصادقاً وصريحاً ؛ ولكنه كان ، قبل هـذا وذاك ، مجدياً ، مفيداً . فقد كان ثمة مئات الأسئلة تحوم في رؤوس العمال الفرنسيين التقدميين حول وضع العرب وموقفهم من هذه المشكلة او تلك ، وحول طبيعة اسرائيل ، دون ان يجدوا عنها جواباً من الجانب العربي ، او بالاحرى دون أن يظفروا من الجانب العربي بمن يقدم لهم وجهة النظر العربيــة ، بينما كانت وجهة النظر الاسرائيلية ، حول الاسئلة ذاتها ، تصل اليهم بمئات الاشكال والألوان والصور من مئات الأجهزة والوسائل الموضوعة في خدمة اسرائيل .

كان اللقاء مجدياً ، نافعاً للقضية العربية ، لأن العمال العرب الذين التقوا بزملائهم الفرنسيين ، قد حددوا هم مسبقاً الموضوعات الرئيسية التي ركزوا عليها أحاديثهم وندواتهم ومناقشاتهم فيما بعد . لم يكن اختيارهم لهذه الموضوعات الرئيسية بقصد التمويه أو التضليل أو طمس الحقائق ، بل كان ما قدموه هو الصورة الواقعية لما يجري الآن فوق الأرض العربية .

لقد تركز الحوار بين العمال العرب والعمال الفرنسيين التقدميين حول الوقائع التالية :

١ – ان الطبيعة الأصلية للصهيونية واسرائيل هي العدوان . فليس عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أول عدوان ولا آخر عدوان توقعه اسرائيل على العرب . إن العدوان بدأ مع أول مؤتمر للصهيونية العالمية (١٨٩٧) حين قرر هذا المؤتمر سلب فلسطين من سكانها العرب وإقامة دولة صهيونية فيها ، في سبيل ذلك وضعت الخطط الخبيثة الماكرة لتغلغل الصهيونيين الى فلسطين بصورة غير مشروعة ، واستمر ذلك حتى وعد بلفور (١٩١٧)حين أباحت بريطانيا لنفسها – دون حق شرعي – أن تجعل من فلسطين « وطناً قومياً لليهود » ، وذلك إنقاذاً لهم من اضطهاد أوروبا المزمن لهم ، وأخذ العدوان بعد ذاك شكل أعمال ارهابية ، تجلت في قيام المنظمات العسكرية الصهيونية ، بحماية حراب بريطانيا – منظات الهاغانا ، الأرغون ، الشتيرن ، وسواها – كانت مهمتها ترويع أبناء فلسطين ، وحملهم على أن يهجروا ديارهم .

واستمر العدوان كذلك سنة ١٩٤٨ ، وتجلى في المذابح البربرية التي ارتكبها الصهيونيون (مذابح دير ياسين ، وقبية وسواها) والتي تذكر بالمذابح النازية (مذبحة سكان قرية أورادور في فرنسا) .

وتجلى العدوان بشكله الصارخ سنة ١٩٥٦ ، وفي ٥ حزيران ١٩٦٧ . وبين هـــذين التاريخين كانت منظمة الأمم المتحدة تدين بلا انقطاع اعتداءات اسرائيل المتكررة على العرب هنا وهناك .

٢ – ان المخطط الصهيوني–الاسرائيلي لايستهدف ، كما تدعي الصهيونية ، انقـاذ يهود أوروبا من الاضطهاد ، بل تحقيق توسع مستمر على حساب الأرض العربية وحق الشعب العربي في وطنه . تشهد بذلك سلسلة الأعمال التوسعية التي قامت بها اسرائيل. فمنذ قرار الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ الذي قضى بتخصيص جزء من فلسطين لقيام « دولة اسرائيلية » ، تمردت الصهيونية على القرار ، وضمت ، عن طريق العدوان المسلح ، مدينة يافا ومنطقتها ، والنقب الجنوبي اليها ، متحدية بذلك قرار المنظمة الدولية . واستمرت في متابعة تنفيذ مخططها التوسعي المستند دوماً الى العدوان ، فاقتطعت مناطق جديدة من العرب اثر العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ، كما أنها تحتل الآن ، نتيجة عدوان ١٩٦٧ ، أراض عربية جديدة من بلاد عربية متعددة ، وتعلن بلا حياء أنها تنوي البقاء في هذه الأراضي ؛ بل إنها تذهب الى أبعد من ذلك ، إذ تأخذ باقامة المستعمرات في مناطق من الجولان والضفة الغربيـة وسيناء ، كما تشهد بذلك تصريحـات المسؤولين في اسرائيل ، وخاصة تلك التي جرت أثناء مؤتمر حزب « المابام » الحاكم خلال الأيام الأخيرة. إن المخطط التوسعي الاسرائيلي لم يعـد مجهولاً من أحـــد ، فاسرائيل نفسها تعلن عنـه بعديد الوسائل (الخارطة الجديدة لاسرائيل ؛ شعار من الفرات الى النيل ، الخ ..)

٣ – ان اسرائيل تقوم بالاعتداء المسلح على البلاد العربية كلما لاحظت الامبريالية العالمية اشتداد حركة التحرر العربي وامتدادها . ذلك أن معركة العرب

التحررية انما تستهدف أول ماتستهدف اجتثاث جذور الامبريالية من الوطن العربي ، فلا حرية ولا تقدم ، ولا رخاء ، ولا وحدة ، بالنسبة للعرب الا بتصفية الوجود الامبريالي من بلادهم : إن مجرد إقامة اسرائيل الدولة فوق أرض فلسطين انما كان يستهدف إعاقة الحركات العربية الوطنية التي انطلقت إثر تحقيق هذه البلاد استقلالها ، وإجلائها لقوات الاحتلال الاستعمارية عن أراضيها . كما أن العدوان الثلاثي (واسرائيل أحد أعضائه) على مصر سنة ١٩٥٦ انما جاء في أعقاب الحركة التحررية العربية الكبرى التي تجلت في تأميم قناة السويس في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٦ ، أما عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ فقد جاء في أعقاب ترسخ الحكم التقدمي الاشتراكي الثوري في سورية . وقد كان من الممكن أن يقتصر هذا العدوان على سورية وحدها . وكلنا نذكر الأحداث التي جرت خلال أيار ١٩٦٧ .

٤ ـ أن العدوان الإسرائيلي المستمر على العرب ما كان ليموت أبداً ، أوعلى أقل تقدير ما كان ليموت بالشكل الذي جرى ، دون دعم مستمر بل وتحريض من الامبريالية العالمية . ان المساعدات المالية والعسكرية التي تتلقاها اسرائيل من الدول الأمبريالية قد تجاوزت العشرة مليارات دولار ، وهي متواصلة ، ولن تكون الطائرات الخمسون الأمريكية من طراز فانتوم آخر هذه المساعدات ، وما من أحد يجهل أن عدوان اسرائيل سنة ١٩٥٦ كان نتيجة تواطؤها مع الامبريالية الفرنسية الانكليزية ، وأن عدوانها سنة ١٩٦٧ كان نتيجة تحريض الأمبريالية الأنغلوسكسونية لها . ان الولايات المتحدة لاتريد أن تسمع شيئاً عن ترسخ حركة تحررية تقدمية في سورية ، أو في سواها من الأقطار العربية . وإذ أنه من المتعذر عليها ـ لاعتبارات دولية عديدة ـ أن تنزل قواتها فوق الأرض العربية لتحارب بها المد العربي التقدمي ، فقد أغنتها اسرائيل عن ذلك ، إذ وضعت نفسها في خدمة الامبريالية العالمية التي تتكفل بحمايتها في حال

انهزامها ودحر القوات العربية لعدوانها ؛ وإلا فما هي مهمة الأسطول السادس الأمريكي في حوض المتوسط إن لم تكن لهذا الغرض ؟ ثمة إذن تحالف وثيق بين اسرائيل والأمبريالية ، ويمكن القول دونما أي تهويل ان المصالح الامبريالية والمصالح الاسرائيلية في الوطن العربي واحدة .

من هذه السمات الأساسية لطبيعة اسرائيل والصهيونية ، نستخلص النتائج الكبرى التالية :

ـ ان اسرائيل والصهيونية هما تهديد مستمر للسلام العالمي ، وكل ما تقومان به يتنافى والشرائع الدولية ، بل انهما تمعنان في الاستهتار بالقوانين الدولية ومقررات منظمة الأمم المتحدة .

ـ إن الطبيعة العدوانية لاسرائيل هي التي شردت عرب فلسطين من ديارهم ، وتستمر في تشريد أمواج جديدة من المواطنين العرب الذين يصبحون لاجئين .

ـ إن العدوان الاسرائيلي على العرب يستهدف في جملة ما يستهدف تدمير الاقتصاد العربي الوطني ـ المصانع ، الحقول ، المزارع ـ ونشر البطالة في صفوف العمال وتجويع عائلاتهم .

ـ ان الطبيعة العدوانية لاسرائيل تتغذى من تحريض الامبريالية العالمية لها ، كي تقوم بدور المعوق والكابح للمد العربي التحرري التقدمي . فالارتباط بين الامبريالية واسرائيل هو ارتباط عضوي ؛ ومكافحة أحدهما لاتقل ضرورة عن مكافحة الآخر ، لذا فإن معركة العرب مع اسرائيل تدخل حكماً في نطاق المعركة الكبرى التي تخوضها جميع الشعوب التواقة الى الحرية ، العاملة على تحقيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية . ومن هذه الزاوية فان الكفاح العربي والمقاومة العربية ، والعمل الفدائي العربي ، لاتدخل فقط في نطاق المشروعية والضرورة (كما حدث للمقاومة الفرنسية أيام الاحتلال النازي لفرنسا) بل تتطلب

دعماً وتأييداً كاملين من جميع القوى والشعوب والمنظمات العالمية التقدمية الداخلة في المعركة ذاتها .

* * *

كانت تلك هي الأفكار الكبرى التي نسج حولها العمال العرب ندواتهم ومحاضراتهم حين قدموها الى القيادات والقواعد النقابية العماليـــة المنتسبة الى « الاتحاد العام الفرنسي للشغل Confédération Générale du Travail » . وكان اصغاء العمال الفرنسيين لهذا كبيراً ، فقد قدمت إليهم بأسلوب مبسط ، واضح ، مدعومة بالوثائق ، والاحصاءات ، والتصريحات الرسمية الصادرة عن اسرائيل ذاتها . وأهم من هذا وذاك ، أن مثل هذه الحقائق هي التي تهم الرأي العام الغربي التقدمي منه والمحافظ ، اننا حين نتمكن من إظهار اسرائيل للناس بمظهر المعتدي ، المصرّ على مواصلة عدوانه على الشعب العربي ـ وهذا مايجري فعلاً ـ نكون قد جردنا اسرائيل كلياً من أسطورتها التي تدعي بها أنها مهدّدة بالفناء من جيرانها العرب ، وحين نتمكن من أن نقدم للآخرين ببساطة وصدق سلوك اسرائيل منذ عشرين سنة وحتى الآن على أنه في معظمه سلوك المؤتمر بتوجيهات الأمبريالية والاستعمار ـ وهذا هو الواقع الفعلي ـ بقصد اعاقة حركة التحرر والتقدم العربي ، نكون قد جردنا مرة أخرى اسرائيل من أسطورتها القائمة على الادعاء بأنها تضم شعباً لاينشد سوى السلام والعيش بأمان .

لقد فهم العمال الفرنسيون هذه الحقائق ، فهموها لامجاملة للعمال العرب ، ولكن لأنهم كانوا بحاجة فعلية إلى من يفهمهم إياها ، باللقاء المباشر ، والحوار الحيّ . شهد بذلك مئات بل ألوف الأسئلة التي طرحوها على وفود العمال العرب ، والتي كانت تستهدف المعرفة والعلم لا الاستفزاز ولا التحدي .

كان بين الحاضرين السائلين عمال فرنسيون يهود ، وكانوا يريدون معرفة

الحقيقة من العرب أنفسهم ، لأنهم كانوا يحسون بشكل أو بآخر أن ثمة تضليلا مقصوداً تمارسه اسرائيل عليهم . فثمة واقع صارخ بالتناقض بالنسبة لاسرائيل : انها بالضبط تفعل عكس ماتقول ، تنادي بالسلام في الوقت الذي تبيد فيه بطائراتها وقنابلها ومدفعيتها معالم الحياة العربية . مثل هذا التناقض الصارخ ، من واجبنا نحن العرب أن نبرزه لشعوب الغرب ، فندحض به مزاعم اسرائيل من أن العرب يعملون على إبادة اليهود ، ومن أن اسرائيل تريد فقط أن تعيش بسلام .

. . .

ليس مستحيلاً إذن أن نكسب الرأي العام الغربي الى جانبنا ، وهو جانب الحق لا الضلال . ثمة منافذ عديدة نستطيع منها الوصول اليه .. وقد لايكون الكسب في البدء كبيراً ، إلا أنه بداية لكسب أوسع وأشمل . وحتى لو سلّمنا جدلاً بصحة نظر القائلين بعقم الجهد العربي في هذا السبيل — لأن اسرائيل قد احتلت الساحة قبلنا — لما كان ذلك مبرراً لنا على الاكتفاء بالهتاف داخل بيتنا ، والمناداة بشروعية حقنا أمام مواطنينا وحدهم .

لقد برهن لقاء العمال العرب مع العمال التقدميين الفرنسيين أن كل شيء مفتوح — أو يمكن أن يُفتح — أمام نقل الحقيقة العربية الى شعوب الغرب . ولئن كان لاتحاد الشغل الفرنسي الفضل الأول والأخير في تنظيم هذا اللقاء — وهو مايستحق عليه شكر وعرفان جميع المواطنين العرب ، لاالعمال وحدهم — فقد تمكن العمال العرب من أن ينفذوا بنسبة كبيرة الى عقول التقدميين الفرنسيين وقلوبهم . فهل يكون لقاء الأمس تمهيداً للقاءات أخرى سواه ؟ وهل بدأنا نحن العرب مرحلة جديدة — وجدية — في إعلامنا ؟

استراتيجية الاقتصاد العربي

يحيى عرودكي

كما أنه ليس للفكر وطن يحمل جنسيته ويعرف به ، وانما ينتقل بين أرجاء المعمورة ويتنقل بين أبنائها ما أتيحت له الفرصة وحالفه التوفيق في غزو العقول والأفهام ، فكذلك الكلمة ، وهي نبت الفكر ، تواقة الى أن تنتقل وتسير على كل شفة ولسان ، ماقدر لها أن تزج في خضم الاصطلاحات اللغوية والتراكيب اللفظية والمعاني الأدبية أو الفنية .

والاستراتيجية ، هذه الكلمة الأجنبية الأصل ، والتي لم تلق في قاموس اللغة العربية كلمة تزاحمها في المعنى والشمول ، والتي استعملت منذ زمن بعيد في العلوم العسكرية للتعبير عن

(فن قيادة وتوجيه وتعبئة الجيوش وخاصة زمن الحرب لبلوغ أفضل النتائج)، أبت أن تبقى في إطار المصطلحات العسكرية ، فراحت تدخل علوماً أخرى ، كالعلوم السياسية والاقتصادية وغيرها ، فاستعملت وشاعت فيها ، وأصبح من المتعارف عليه ، وجود استراتيجية سياسية وأخرى اقتصادية وثالثة اجتماعية . الى غير ماهنالك من العلوم والفروع الأخرى التي التصقت بهـــا وعرفت من خلالها .

فلقد أدى التطور في العلوم والفنون وما حققته من تقدم ، أن نمت بعض فروع الانتاج وحدثت تغيرات عديدة في الهياكل الاقتصادية للعديد من الدول، وفي كثير من البلدان ، وكان من نتيجة هذا النمو وتلك التغيرات أن تشابكت الشؤون الاقتصادية والاجتماعية في مختلف انحاء العالم بشكل جعل أمر ادارة وتسيير الحياة الاقتصادية أكثر تعقيداً عما كان عليه الأمر من قبل ، خصوصاً في ظل ظروف السباق المحموم بين الدول الكبرى حول اقتسام أسواق العالم وثرواته وفي مقدمتها أسواق وثروات البلدان النامية ، الواسعة والغنية . مما أصبح معه من الضرورة بمكان أن يلم بهذه التطورات ويعالج هذه المشكلات المتشابكة (فن) يتمثل في الستراتيجية الاقتصادية .

أولا ـــ مفهوم الاستراتيجية الاقتصادية :

ربما يذهب ظن البعض الى أن الستراتيجية الاقتصادية تعني التخطيط الاقتصادي ، وربما يرى آخرون أنها التعبئة الاقتصادية ، وقد يعتبرها فريق آخر بمعنى التوجيه الاقتصادي ، بينما هي تعني في الحقيقة كل هـذا وذاك بآن واحد .

فالاستراتيجية لايمكن أن يقتصر مفهومها على التخطيط ، اذ أن مفهوم

التخطيط يقتصر على عمليات وضع خطط العمل أو التصاميم والمخططات للاستفادة من الموارد والامكانات في بلد ما على الوجه الأفضل .

والاستراتيجية لايقتصر أيضاً مفهومها على التعبئة ، فهذه الأخيرة تستهدف حشد الموارد الاقتصادية المتاحة في بلد ما،لتحقيق هدف أو مجموعة من الأهداف المعينة .

والاستراتيجية لاتعني فقط التوجيه ، لأن عملية التوجيه ليست اسلوباً متكاملاً ، كما أنها قد لاتكون شاملة جميع الموارد والامكانات المتاحة في بلد ما .

وكذلك فإن الاستراتيجية الاقتصادية تعني أكثر من قيادة الاقتصاد ، لأن القيادة ليست سوى فن في توجيه بعض الفروع والتأثير فيها لتسير في الاتجاه المرغوب .

وبالاضافة الى ذلك فإنها لايمكن أن تعني فقط الادارة ، لأن هذه تستهدف عملية تحديد وتوضيح وظائف الفروع الاقتصادية لبلد ما ، وتوزيع هذه الوظائف بين الفروع المختلفة بما يحقق الغرض منها بنجاح مع الاقتصاد في الوسائل المستخدمة .

وكما سبق القول فإن الاستراتيجية الاقتصادية ، باعتبارها تعني،بآن واحد، التخطيط والتعبئة والتوجيه والقيادة والادارة . فهي اذاً الفن الذي يتولى عملية التخطيط والتوجيه والقيادة والادارة وتعبئة الموارد والامكانات والطاقات المتاحة في بلد ما أو مجموعة من البلدان لبلوغ أفضل النتائج بأحسن الوسائل .

فالاستراتيجية فن قبل أن تكون علماً ، والتخطيط مع ذلك يعتبر أحد المقومات الاساسية لها ، فهو منها بمكان العقل من الجسم . وهي بحاجة الى عقل

واضح ورأي سديد كما تأتي القرارات التي تتخذ من خلالها سليمة ودقيقة . وهي بحاجة أيضاً لارادة صلبة كافية لمتابعة الجهود باتجاه الأهداف المتوخاة والمطروحة للتحقيق . ومثل هذه الصفات من النادر أن تجتمع في فرد واحد . ولذلك كان وضع خطوط الاستراتيجية انما يقع على عاتق هيئة قيادية عليا في البلاد ، لأن عليها أن تقدر الموارد والامكانات المادية والبشرية وتعمل على مضاعفتها تبعاً لتنظيم وتوزيع المهام والوظائف بين مختلف القطاعات والمرافق ، آخذة في الحساب جميع الاعتبارات الأخرى المتعلقة بالنواحي المالية والتجارية وشؤون العمالة وغيرها ، هذا بالاضافة الى الاهتمام بالنتائج التي تحققها فروع الانتاج والمرافق والقطاعات المذكورة . فنجاح الاستراتيجية انما يتوقف على التقدير السليم للوسيلة والغاية بآن واحد وتحقيق التناسق بينهما .

ثانياً — أهمية الاستراتيجية الاقتصادية بالنسبة العالم العربي :

إن وقوع العالم العربي في منطقة هامة من العالم ، قد بوأته لاحتلال مركز استراتيجي ممتاز . كما أن مايتلكه من الامكانات والموارد المادية والبشرية المتعددة الأنواع والقدرات يشكل قوة استراتيجية لايستهان بها في رسم السياسة العالمية ، سواء في زمن السلم أو الحرب . الا أنه مع ذلك ، تسيطر على بلدانه ، وتنخر في جسمها ، مجموعة من الآفات الاجتماعية والاقتصادية تتمثل في التخلف وأمراضه الثلاثة ، الفقر والمرض والجهل ، التي ورثتها عن عهود سابقة ، والتي يسعى الاستعمار جاهداً لابقائها ترزح تحت وطأتها ، تارة عن طريق شركاته الاحتكارية ، وأخرى عن طريق مخططاته الرامية الى تفتيت شمل هذه الأقطار وتقطيع أوصالها ، المتمثلة باسرائيل التي أوجدها لهذا الهدف في قلب الوطن العربي .

ومامن شك في أن الأمة العربية في جميع تلك الأقطار يهمها أن تتجاوز هذه الأوضاع الشاذة التي تسيطر عليها وتحيط بها . وأن تتخطاها بمختلف السبل والوسائل وتقضي عليها . ولذلك كان لابد لها للوصول الى ماتبتغيه من أن تأخذ باستراتيجية شاملة تتشكل من مختلف الاستراتيجيات الخاصة بكل من أوجه حياتها وفي مقدمتها الاقتصادية وتنسق فيما بينها . وعلى ضوء ماتقدم يتضح بأن الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي، وان كانت من مستلزمات المرحلة التطورية التي يعيشها ، في ظل الحرية التي بدأت معظم أقطاره تتنسم ريحها بعد استقلالها في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والتي تتطلب تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية سريعة ومتوازنة حتى يتمكن من التغلب على أعدائه في التخلف والقضاء على أمراضه من الفقر والجهل والمرض ، ليلحق بركب الأمم المتطورة، وليعيش معها حضارة القرن العشرين . إلا أنها اضحت أكثر الحاحاً على شعوب الأمة العربية بعد كارثة فلسطين في عام ١٩٤٨ وماتلاها من نكسات أو نكبات ، كانت منها بمثابة ناقوس الخطر الرهيب ، حرب حزيران ١٩٦٧ . لأنها بنتائجها التي تناولت انتزاع ، ليس جزء من فلسطين ، وانما ابتلاع الوحش الصهيوني لكامل الأراضي الفلسطينية ، وأجزاء أخرى من أقطار عربية مجاورة ، جاءت تؤكد أن الخطر الصهيوني بات يهدد الكيان العربي بمجموعه والوجود أو الذات العربية في صميمها .

فلقد تبين في أعقاب هذه الهزائم التي لحقت بالدول العربية ،أوالنكبات التي حاقت بالشعوب العربية ، أن العدو الاسرائيلي استطاع أن يصل الى ماوصل اليه عن طريق استخدامه الاستراتيجية الشاملة، ومنها الاستراتيجية الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاعلامية ، والتنسيق المتبادل فيما بينها جميعاً . في

حين افتقدت الدول العربية استراتيجيتها على النطاق القطري أحياناً، وعلى الصعيد القومي دائماً. مما دفع بها الى المصير المؤلم والنتيجة الفاجعة اللذين آلت اليها في حرب حزيران ١٩٦٧، مما بات معه من المتعذر، بل من غير المقبول، أن تتم مواجهة العدو بتدابير اقتصادية انفرادية من كل من الدول العربية، قائمة على التجارب الفردية، من جهة، وعلى التنافر والتضارب في أحيان كثيرة، من جهة ثانية، بينما يأخذ العدو باستراتيجية شاملة، تجعل معها فرص التغلب عليه تضيع على الأمـــة العربية لضعف جدوى تلك التدابير التي تأخذ بها من خلال الكيانات المجزأة. وبات واقع الصراع العربي – الاسرائيلي الاستعماري يتطلب الأخذ باستراتيجية اقتصادية موحدة للعالم العربي.

ثالثاً ـــ عناصر الاستراتيجية الاقتصادية العربية:

لابد عند وضع خطوط أية استراتيجية من أن تؤخذ بعين الاعتبار ثلاثة عناصر أساسية هي: الزمان، المكان، الحجم.

وفيما يتعلق بالاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي، فان هذه العناصر تتبدى بشكل واضح من خلال الآتي:

١ – فالزمان يتوافق مع المرحلة التنموية والتعبوية للأمة العربية. فهي تود مخلصة تجاوز مرحلة التخلف التي تعيشها أقطارها في الوقت الحاضر، كما أنها مصممة على أن تضع حداً للعدوان الصهيوني المؤيد من الاستعمار قبل أن يزداد وتستفحل حدته.

٢ – والمكان فسيح الجوانب متعدد الجهات. لأنه يشمل سائر الأرض العربية من الخليج الى المحيط خصوصاً بعد أن تكشفت في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ النوايا العدوانية لاسرائيل وتطلعها الى ضم أجزاء أخرى من الوطن العربي

لخلق امبراطورية لها من النيل الى الفرات .

٣ – اما الحجم ، فلقد سبق القول أن اطار الاستراتيجية انما يغلف ويحيط مجموعة الموارد والامكانات والطاقات البشرية المتاحة في بلد ما أو مجموعــة من البلدان . وتبعاً لذلك فان أية استراتيجية عربية في هذا المجال سوف يكون مسار عملها وأدواتها الارض العربية ، والموارد والامكانات المادية والطاقات البشرية المتاحة في أرجاء الوطن العربي الكبير . يضاف الى ذلك السياسات الاقتصادية التي يجب انتاجها في سبيل تحقيق عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفي سبيل توفير ماتحتاجه عملية الصمود والاستعداد للمعركة القادمة .

وقد يكون في استعراض سريع لتلك الموارد والامكانات والسياسات، مايساعد على جعل الرؤية الواضحة للواقع الاقتصادي للعالم العربي ميسورة أكثر بحيث تسهم في تقدير أهمية هذه الموارد والامكانات ومداها في رسم الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي .

آ – الموارد المادية : وتتألف من الأرض والثروات الطبيعية الكامنة فيها ، ومن كميات الامطار ودرجة الخصوبة . ذلك أنه من المعروف أن مساحة الوطن العربي الممتد بين ثلاث قارات تبلغ نحو أحد عشر مليون كيلومتر مربع ، كما أن وقوع بلدانه على سواحل عدد من البحار والمحيطات ، وانسياب ثلاثة أنهار عظيمة هي النيل والفرات ودجلة في أراضيه مع بقية أنهار عديدة أخرى، قد جعل كميات الموارد المائية تساعد على توفير مساحات واسعة من الأرض الزراعيـــة المروية ، وأن تكون بعض هذه المساحات ذات درجة خصوبة عالية .

وبالاضافة الى اتساع رقعة الوطن العربي ، فإن غنى عدد من أقطاره بالنفط والفوسفات والأملاح أو المعادن كالحديد والنحاس والمنغنيز والرصاص

وغيرها من شأنه توفير بعض المواد الأولية لإقامة قاعدة صناعية ثقيلة في أرجائه، تمنحه القوة وتكون سبيلا من سبل نموه وتطور أقطاره .

فلقد بلغ المخزون العربي من النفط نحو (٦٠٪) من المخزون العالمي ، كما أن انتاج الاقطار العربية من النفط قد بلغ عام ١٩٦٦ نحو (٣٠٪) من الانتاج العالمي . وتعتبر نفقات وتكاليف استخراج هذه المادة في البلدان العربية منخفضة بشكل ملحوظ اذا ماقيست بأمثالها في الولايات المتحدة الأمريكية وفنزويلا . ويقدر عمر المخزون العربي من النفط بنحو (١٠٠) عام تقريباً ، بينما هو دون ذلك بكثير في بعض البلدان المنتجة له كالولايات المتحدة الامريكية .

ويبلغ انتاج الفوسفات العربي نحو (٣٥٪) من الانتاج العالمي . ويعتبر البحر الميت من أغنى مناطق العالم بالأملاح وخاصة مادة (كاوريد البوتاسيوم) المستعملة في صناعة الأسمدة البوتاسية . ويقدر أن تكفي هذه الكميات لمدة تصل الى نحو (٣٥٠) عاماً ، كما تقدر قيمتها بنحو (٢٠٠٢) ألف مليون جنيه استرليني . ويبلغ ، كذلك ، انتاج العالم العربي من الحديد نحو ستة ملايين طن ومن المنغنيز (٥٧٧) ألف طن ومن الرصاص (١٢٧) ألف طن ومن الزنك (٥٨) ألف طن . وهذه الكميات تمثل الجانب الذي أمكن الكشف عنه من الثروات الطبيعية في الوطن العربي حتى الآن . وكلما امتدت الابحاث كلما تبين وجود خامات أخرى وكميات تنتظر الكشف عنها واستثمارها .

ب — **الموارد البشرية** : يزيد عدد سكان العالم العربي في الوقت الحاضر على مائة مليون نسمة ، وتشير التقديرات الى أن هذا العدد سوف يصل في عام ١٩٨٥ الى نحو (١٣٥) مليون نسمة . موزعين بين الاقطار العربية بشكل غير متكافىء مع رقعة الأرض التي توفر لهم ما يحتاجونه من المنتجات والمواد أو

مع الامكانات والثروات المتاحة في كل منها .

فبينما تشكو العربية المتحدة والأردن ولبنان من ضيق أراضيهـا عن استيعاب سكانها وتوفير ما يحتاجونه من المنتجات والسلع أو ما يوفر لهم من امكانات بممارسة النشاطات الاقتصادية ، فإن العراق والسودان يشكوان التخمة من اتساع مساحة الأرض التي يقيم عليها عدد محدود من البشر وزيادتها عن حاجة هؤلاء السكان ، بحيث بقيت مساحات كثيرة بدون استغلال . ومثل ذلك بالنسبة للكويت وامارات الخليج والسعودية وليبيا ، حيث تفوق الثروات المتاحة عدد سكان كل منها ، بينما تلاحظ هجرة أعداد وافرة من المواطنين العرب في المغرب والجزائر ولبنان والعربية المتحدة والعربيـة السورية الى الخارج للتفتيش عن العمل الضروري لها .

ولقد أدى عدم التكافؤ هذا من جهـة ، وحالة التخلف التي تعيشها هذه البلدان من جهة أخرى ، الى أن معظم القوى البشرية العربية لم يتيسر لها اكتساب الكفاءة والمقدرة الفنية التي تتطلبها مرحلة التطور والنمو التي تعيشها الأقطار العربية .

ج – **رؤوس الأموال** : اذا كانت تتوفر لدى بعض البلدان العربية مقادير من رؤوس الأموال المتمثلة في الاستثمارات الجارية في المرافق والمشاريع الانمائية كالمطارات والمرافىء والسدود والجسور والمصانع ومحطات الكهرباء وغيرها ، فإن ما هو موجود منها في بعض هذه الاقطار لا يعتبر كافياً ومتناسباً مع حاجاتها ، تبعاً لحالة التخلف التي تعيشها والتي يفترض أن تتجاوزها . ولذلك فهي بحاجة ماسة الى العديد من المشاريع الانمائية ، سواء في مجال بناء شبكة متكاملة من الطرق والجسور تربط مراكز الانتاج بمناطق الاستهلاك ومنافذ

التصدير . وفي اقامة المصانع ومحطات توليد الطاقة من أجل اقامة قاعدة اقتصادية توفر لها المزيد من الانتاج أو غير ذلك من المرافق والمشاريع الأخرى .

ومع هذه الحاجة الملحة للمزيد من رؤوس الأموال ، فإن الأمر الذي يشكل تناقضاً ملموساً في الوطن العربي ، ذاك الغنى الذي تعيش فيه بعض الاقطار العربية ، نتيجة تمتعها بمخبوءات النفط الذي يتفجر في أراضيها ، وتلك الحاجة الشديدة التي تسيطر على اقطار عربية أخرى نتيجة بخل الطبيعة عليها بمثل تلك الثروة أو غيرها . ومهما قيل في وجوه الانفاق التي تصرف فيها عائدات النفط وفي المواطن التي تودع فيها تلك الأموال وتحفظ أو تستثمر بواسطتها ، فإنه بدون شك ، يصبح اتجاه الاقطار العربية المعسرة إلى المصادر الأخرى غير العربية أمراً مفروضاً عليها ، على الرغم مما يعنيه من الفضيحة ، وما يحمله في طياته من التبعية للدول الكبرى التي لاتقدم قروضها لوجه الله ، وما فيه من الاعاقة لمسيرة تلك الأقطار في دروب التنمية والتطوير الاقتصادي والاجتماعي .

وليس الأمر بالنسبة للسياسات الاقتصادية والمالية المأخوذ بها في العالم العربي بأفضل مما تقدم . ولن يجد الباحث في مضمونها سوى مزيج غريب عجيب من هذه السياسات يناقض بعضها بعضاً ، وتكاد تشكل في اتجاهاتها والأهداف التي تسعى لتحقيقها أقصى ما يمكن أن يطمع في الوصول اليه عدو لدود لا يرجو من مطامعه تلك الا ان يلحق أبلغ الضرر وأشده في الأمة العربية .

١ — ففي مجال السياسات المالية ، قل أن يشاهد الانسجام والتوافق بين قطرين عربيين أو أكثر في هذا المجال . وما يلاحظ في مجال تنمية رأس المال واتباع التقشف ودعم بعض فروع الانتاج وتنمية الموارد وزيادة التراكم الرأسمالي ،

يلاحظ عكسه في قطر آخر: إسراف في النفقات وفي وجوه الاستهلاك غير المنتجة، جمود رأس المال المتوفر وتنكبه عن سبيل النمو، تقهقر بعض فروع الانتاج وعدم تمكنها من الوقوف في وجه المزاحمة التي تتعرض لها، قصور في الموارد عن تغطية التنمية والتطور.

٢ – وفي مجال سياسات الاعتماد وما يتفرع عنها من الاستثمارات الوطنية والأجنبية والمساعدات الخارجية التي يمكن الحصول عليها، فإن الأمر ربما كان أكثر وضوحاً في شؤون الاستثمارات حيث يلاحظ اتجاه معظم الدول العربية التي تملك رؤوس أموال وفيرة الى ايداع هذه الاموال في المصارف الأجنبية أو في بعض المشاريع التي تقام في بلدان أجنبية أخرى، في حين أن الجزء اليسير منها يودع في مصارف عربية أو يستثمر في مشاريع عربية.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي، أن تعمد بعض الدول العربية الى فتح الباب على مصراعيه أمام الاستثمارات الأجنبية والمساعدات الخارجية بعيداً عن أية تحوطات أحياناً، وبعيداً عن تقدير نتائج وآثار هذه التسهيلات والحرية التي تحصل عليها تلك الاستثمارات، والأخطار التي قد تنجم عنها في أحيان أخرى. في حين تغلق أقطار أخرى أبوابها أمام مثل هذه الاستثمارات بدافع من الحذر وبدافع من الحيطة المتزمتة. وبذلك يغرق الطرفان، الأول في طوفان الاحتكارات الأجنبية والتسلط والاستغلال اللذين تلجأ اليها هذه الاحتكارات، والثاني في لجة التأخر والجمود عن تجاوز حالة التأخر التي يعيشها لعدم توفر رؤوس الأموال الكافية لديه.

٣ – أما فيما يتعلق بسياسات التجارة الخارجية، فان تشابه اقتصاديات الدول العربية الى حدما، وكون الصفة الزراعية هي الغالبة عليها، ثم اتجاه

معظم هذه الدول الى مباشرة بعض الخطوات الانمائية لديها ، بقصد تغيير التركيب الهيكلي لاقتصادياتها ، يجعل أهمية خاصة للسياسات المتبعة في مجال التجارة الخارجية في كل من هذا الاقطار . ذلك أن من الأهداف التي لابد من أن تعمل على بلوغها ، الحصول على أقصى حصيلة ممكنة من العملات الأجنبية عن طريق زيادة الصادرات ، وتقليص المستوردات ذات الطابع الاستهلاكي طالما أن هنالك منتجات عربية يمكن أن تحل محلها ، وتوجيه المبادلات التجارية بين الأقطار العربية لتسير وفق ما يحقق التكامل الاقتصادي فيما بينها ، ويخدم عمليات التنمية والتطوير في هذه الأقطار. لكن الملحوظ في هذا المجال تعارض السياسات المطبقة في الدول العربية بعضها مع بعض ، بحيث يتبدى للمراقب وكأن هذه السياسات وضعت بالأصل لتحول دون بلوغ تلك الأهداف .

٤ – وفي نطاق سياسات الأسعار والأجور ، وحيث يقتضي في هذا المجال تبني أسس متقاربة ومتسقة بين الأقطار العربية ، حتى تسهم في نمو مختلف القطاعات الانتاجية ، وتحول دون تزايد التناقضات والفوارق بين هذه الأقطار . وكذلك بما يحول دون خلق تأثيرات متكررة في مستويات الأسعار تكون لها انعكاساتها على النقد المتداول . فإنه من النادر التقاء دولتين عربيتين في سياسة واحدة تتبعها في هذا الشأن ، على الرغم من الحرص الذي تبديه كل من الدول العربية في بلوغ تلك الأهداف .

٥ – ويتبع ذلك السياسات المعتمدة في مجال القوى العاملة وتشريعات العمل . فمثل هذه السياسات تتطلب أيضاً تقارباً في الأسس التي تبنى عليها ، بالنظر للأثر البالغ في توفير أحد العناصر الهامة في بناء القاعدة الاقتصادية العربية ، وذلك عن طريق ما تحققه مثل هذه السياسات للقوى العاملة من امكانات التغلب

على المرض والفقر والجهل ، ومن مجالات الكفاية والتدريب والاستعداد الفني لتأخـذ مكانهـا في معركة التحرر الاقتصادي والسياسي في الوطن العربي . فان تلك السياسات لم تتمكن حتى الآن من أن تجد صيغاً متقاربة تتجمع من خلالها مصالح القوة العاملة العربية ، لتتوزع هذه القوى فيما بعد بين مختلف فروع الانتاج تبعاً لمتطلبات هذه الفروع ، وفي نطاق الستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي .

على ضوء ما تقدم ، فانه يتضح بشكل لا غموض فيه أو التباس ، أن امكانات وموارد العالم العربي المتاحة ، متنوعـة المصادر والأشكال ، وفيرة الكميات ، إلا أنها مع ذلك تشكو سوء الاستثمار والاهمال الى حد كبير . كما تشكو عدم توفر السياسات الاقتصادية التي من شأنها توفير المناخ والظروف الملائمة لحسن استثمارها على أفضل وجه ، سواء على الصعيد القطري أو القومي ، من أجل تحقيق التطوير والتنمية اللازمين لبلوغ مستقبل أفضل للشعوب العربية ، ومن أجل توفير كل الأسباب الضرورية للمعركة الفاصلة مع العدو الصهيوني والاستعمار .

رابعاً ــ أهداف الاستراتيجية الاقتصادية العربية :

إن هذا الوضع الذي تستثمر فيه الموارد والامكانات والطاقات المتاحة في الوطن العربي ، من شأنه أن يوضح الضرورة الملحة لتحقيق الستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي . وهي ضرورة تنبع من الحرص على قيـام استراتيجيات في كل من الاقطار العربية يتم التنسيق ثم التوحيد بينها بشكل يؤدي بالنتيجة الى تحقيق أقصى الفوائد وأكبر مردود اقتصادي واجتماعي بمكنين بأقل التكاليف وخاصة :

١ ــ استبعاد حالات الازدواج في العديد من الخطط والمشاريع التي

تنفذ تبعاً لها ، وبالتالي الاقتصاد في التكاليف والأعباء التي تصرف أحياناً دون أن تتناسب والفوائد أو النتائج المطلوبة .

٢ – مراعاة الترابط والتكامل بين مختلف المشاريع الواردة في مختلف الخطط وتنسيقها بما يضمن لها توفر جميع المعطيات والظروف التي تمكنها من أن تكون أكثر انتاجية وربحية .

٣ – تحريك جميع الامكانات والموارد المتاحـــة في الوطن العربي واستخدامها على أفضل ما يجب في خدمة الاقتصاد العربي ، وبما يؤدي للقضاء على العوامل المعطلة لها .

٤ – تحقيق التوازن بين متطلبات التعبئة الدفاعية وبـين عمليات التنمية والتطوير الاقتصادي والاجتماعي في الاقطار العربية .

إن بلوغ هذه الأهداف عن طريق استراتيجية اقتصادية عربية ، من شأنه القضاء على المخاوف التي قد تجول في أفكار بعضهم ، من أن التعبئة الدفاعية قـد تعطل مشاريع التنمية أو تحد من انطلاقها او بالعكس . ذلك لأن التغيرات التي تتم في نطاق هذه المشاريع والتي لابد أن تعيد تركيب الهياكل الاقتصادية العربية على أسس سليمة ومترابطة ، من شأنها ان تجعل الاقتصاديات العربية مهيأة أكثر من أية ظروف وأحوال أخرى لمواجهة متطلبات الدفاع والتنمية .

خامساً ــ منطلقات الاستراتيجية الاقتصادية العربية :

ان تحقيق استراتيجية اقتصادية للعالم العربي لمواجهـــة متطلبات الدفاع والتنمية ، انما تستدعي بالدرجة الأولى النظر الى الاقتصاد القومي للأقطار العربية على أنه وحدة متكاملة ، وعلى أن هذه الأقطار تمثل وحدات في الكيان الاقتصادي للأمة

العربية . ذلك لأن هـذا الكيان معرض بكامله وبدون أي استثناء لتحديات الاستعمار وركيزته اسرائيل ولأطماعها الآنية المتمثلة في هذا الغزو الاستيطاني للأرض العربية . وفي الاحتكارات التي تستخدم سبيلاً لنهب ثرواته . ثم لأطماعها المستقبلة التي تتبدى من خلال مخططات التوسع والامتداد الى مساحات جديدة واتباع أساليب أخرى في التبعية الاقتصادية .

وهذا يتطلب ، بلا شك ، أن تتم معالجة ظروف وأحوال الاقتصاديات العربية بمجموعها ، وذلك باجراء مسح عام لمختلف الموارد والإمكانات والطاقات المادية والبشرية المتاحة في مختلف الأقطار العربية ، بقصد التعرف على أهم عناصرها ونوعيتها ومقاديرها ومجالات استثمارها ، والمواطن التي تتوفر فيها أو تحتاج اليها ، وبصورة خاصة تلك العناصر ذات الطبيعة الشاملة ، كمكافىء رأس المال لمجموع الاقتصاديات العربيـة ، والتطور والنمو السكاني ، وحجم العمالة ، ومستوى الأجور واتجاهاتهـا ثم مكونات الدخل القومي وتطورها ، ومقدار التراكم الرأسمالي وحجم الادخار ومصادره ومعدلاته ، بالاضافة الى التركيب السلعي والتوزع الجغرافي للتجارة الخارجية وغير ذلك من العناصر المماثلة الأخرى .

ولن نكون مغالين إذ نشير الى بعض الحقائق التي تغلف الاقتصاديات العربية في الكيانات المجزأة ، والتي تعيب هذه الاقتصاديات وتجعلها مهلهلة ، وغير قادرة بأوضاعها الحاضرة على توفير حاجات ومتطلبات التنمية والدفاع بآن واحد ، والتي يأتي في مقدمتها :

١ ـ محدودية الموارد والامكانات المتاحة في الظروف الراهنة ، بالاضافة الى مايمكن أن تتأثر به من ضغط وتقلص في ظروف الحرب والعدوان .

٢ – سوء توزيع تلك الموارد والامكانات بين القطاعات المختلفة بشكل جعل جانباً منها بحكم المعطل .

٣ – سوء استخدام الموارد والامكانات المتاحة والانعكاسات التي تتأثر بها فروع الانتاج والاستهلاك والعمالة ، مما جعل استخدام جانب من هذه الموارد والامكانات يتم بصورة غير اقتصادية وغير متوافق مع متطلبات ظروف الصمود والاستعداد للمعركة وضرورات التنمية .

٤ – ضعف القاعدة الصناعية في مختلف الاقطار العربية نتيجة ضعف دخولها القومية .

٥ – قيام عدد من المشاريع الصناعية المتماثلة في أكثر من قطر عربي ، دون الأخذ بعين الاعتبار الامكانات المحدودة لهذا القطر ، وما يمكن ان تتعرض له هذه المشاريع من المنافسة غير الاقتصادية .

٦ – ضعف الملاكات (الكوادر) الفنية المتوفرة في الأقطار العربية وعدم قدرتها على تأمين المستوى الملائم لحركة التطوير والتنمية القطرية .

وما من شك ، في أن تحديد هذه المثالب والعيوب التي تنخر في جسم الاقتصاديات العربية ، لأن هذه الاقطار تعيش في ظل التجزئة والكيانات المصطنعة ، ثم الاحاطة بمختلف مصادر الثروة ، والتعرف على مختلف الموارد والامكانات المتاحة في الوطن العربي ، أو تلك التي يمكن تحقيقها والحصول عليها في المستقبل ، من شأن ذلك كله أن يوفر الأرضية اللازمة لتحديد منطلقات الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي ، وبما يساعد على رسم أبعادها وبيان السبل لبلوغ أهدافها .

سادساً – أسس الاستراتيجية الاقتصادية العربية :

على ضوء تلك المنطلقات ، كان لابد من مراعاة جميع الظروف والمعطيات التي تتأثر بها الاقتصاديات العربية وتؤثر فيها ، ومنحها كل العناية عند وضع خطوط الاستراتيجية ، بحيث تأتي هذه الخطوط منسجمة ومتطورة مع متطلبات المرحلة التموينية والتعبوية للوطن العربي . وهذا يستدعي بالضرورة الأخذ بمجموعة من الأسس ، يأتي في مقدمتها الآتي :

١ – أن تكون خطوط لاستراتيجية قادرة على التحليل والتنسيق والدمج أو التركيب ، أي تحليل الإمكانات والموارد المتاحة وتلك التي يمكن توفيرها ، وتنسيق عمليات قيادة الاقتصاد الوطني لاستخدام تلك الموارد والامكانات بأفضل الطرق والأساليب لبلوغ أفضل النتائج .

٢ – ان تتمشى الأهداف التي تسعى الاستراتيجية لتحقيقها مع الامكانات والموارد ، على ضوء التحليل الذي يتوصل اليه . لأن من شأن العمل على تحقيق أهداف تفوق هذه الامكانات والموارد بكثير ، تحميل فروع الاقتصاد أعباء ونفقات لاتتفق مع النتائج المطلوبة ، كما أن من شأن قصور الأهداف وضعفها عن حجم الامكانات والموارد اضاعة جانب من الموارد والامكانات وتعطيلها بدون مبرر .

٣ – ألا تؤدي الاستراتيجية الى خلق تعقيدات وصعوبات تجعل أمر الاهتمام بتجاوزها سبيلاً لإضاعة الهدف الذي تسعى لتحقيقه ، وسبباً يحول دون متابعة الجهد للوصول الى هذا الهدف . وهذا يعني ، انه يترتب عند وضع خطوط الستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي ، أن يتم اختيار أفضل السبل

والأساليب التي من شأنها تطبيق مبدأ أقصى الكفاءة الانتاجية بأقل النفقات والتكاليف . وبالتالي الأخذ بمبدأ حشد الموارد والامكانات المتاحة بما يحقق الاستخدام الكامل لعناصر الانتاج .

٤ — أن تتميز الاستراتيجية هذه بالمرونة في خطوطها ، بما يساعد على تكييفها وخاصة عند تنفيذها ، مع ظروف ومتطلبات المرحلة التنموية والتعبوية للأقطار العربية التي تمر بها في الوقت الحاضر .

ومن البدهي أن الأخذ بهذه الأسس مرتبط بشكل وثيق بتحديد الهدف من الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي . ومن الطبيعي أن يختلف الهدف في زمن السلم أو في الأحوال الطبيعية عنه في ظروف المعركة والمواجهة العدوانية ، كتلك التي تعيشها الأمة العربية في هذه الفترة بالذات .

وما من شك في أن أهداف الجماهير وتطلعاتها في زمن السلم إنما تنصب بالدرجة الأولى على تحقيق الحياة الأفضل لها ، في حين أن هذه الاهداف في زمن الحرب والظروف التي تتعرض فيها للعدوان ، تتراجع بعض الشيء الى خلف أهداف أخرى تنطلق الى المقدمة ، وتحل محل الأولى ، لأنها تنبعث من ارادة البقاء والحياة والمحافظة على الحرية التي تتمتع بها هذه الجماهير . ولأن بقاء هذه الأهداف في المرتبة الثانية من شأنه اتاحة الفرصة للقوى العدوانية أن تحقق مطامحها ومطامعها في الغزو والاحتلال والسيطرة عليها . ومن هنا تبرز القيمة الحقيقية لتلك الأسس في رسم خطوط الستراتيجية ، فهي القادرة — اذا ما أحسن استخدامها وتفهم محتواها — على أن توفق بين متطلبات الظروف الاستثنائية وبين المتطلبات الأخرى للجماهير في تحقيق الحياة الأفضل لها ، والتي لايمكن أن تحد أو تتوقف لأنها متطورة تطور الحياة .

وهذا يعني بدون شك ضرورة توفير القدرة على الصمود والدفاع والقتال وبنفس الوقت ، توفير الظروف والامكانات أمام الجهود الانمائية لتتابع مسيرتها، وتحقق أهدافها في توفير القاعدة الاقتصادية القوية التي تؤمن للمعركة ما تحتاجه من الدعم المادي . وهذه نقطة هامة يتوجب عدم اهمالها ، إذ أن العدو يحرص أشد الحرص على أن يلحق بالخطط والجهود الانمائية لخصمه أفدح الضرر وأبلغ الخسارة حتى يقلل من قدرته على الصمود والمواجهة .

سابعاً — الترابط بين الاستراتيجية الاقتصادية في العالم العربي ومعركة التحدي مع الصهيونية والاستعمار :

ان توفير القدرة على الصمود والدفاع والقتال ليست بالعملية السهلة ، وليست مما يمكن أن يعالج بحلول مرتجلة أو عن طريق اجراء تجارب شخصية أو فردية . لأنه لاخيار في مثل هذه الأحوال وانما هنالك فرض والزام من جانب الظروف المسيطرة في جو المواجهة وفي نطاق التحدي لوجود الأمـــة العربية . ولايمكن بأي حال من الاحوال تجاهل مثل هذه الظروف والتغاضي عنها ، لانها من الاهمية والاثر بما يجعل أية خطوات بمعزل عنها تحمل في مضمونها الفشل وسوء العاقبة .

والاستراتيجية الاقتصادية بمفهومها الصحيح ومن خلال منطلقاتها ، وتبعاً للأسس التي توضع على هداها خطوطها ، ووفق الأهداف التي تسعى لتحقيقهـا .. تعالج بل تتصدى لمعالجة مختلف التأثيرات والأحوال والظروف المحيطة سواء في اطار خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية أو في اطار عملية الصمود والاعـــداد للمعركة . وتسعى من خلال ذلك الى أن تحقق بنفس الوقت وبقدر من الموازنة الدقيقة الآتي :

١ – زيادة الانتاجية ورفع كفاءتها بما يعوض النقص الذي يتوقع أن تواجهه فروع الانتاج نتيجة اتجاه بعضها نحو الانتاج الحربي .

٢ – اعادة توزيع الموارد والامكانات المتاحة بما يؤمن تحويل جزء منها الاستعمال المدني لاستخدامه في الأغراض الدفاعية أو التموينية وبما يحقق زيادة الانتاج في هذه المجالات .

٣ – العمل على استخدام مختلف الموارد والامكانات والطاقات التي كانت معطلة ، من أجل تعويض النقص الذي ينتظر حدوثه في المجالات التي تأثرت نتيجة الظروف الطارئة .

٤ – السعي لخفض مستوى الاستهلاك للعديد من الحاجات غير الملحة في نطاق القطاعين العام والخاص والأخذ بقاعدة الاقتصاد والادخار في المجالات الممكنة .

٥ – زيادة حجم وكفاءة المشاريع الوطنية ونشاطها في مجال استثمار الثروات القومية بما يحقق تحرير هذه الثروات من سيطرة الاحتكارات الأجنبية والاستعمارية منها بشكل خاص، حتى يمكن الحصول على اقصى فائدة ممكنة توفر للآلة الحربية مزيداً من الدعم وللخطط الانمائية الأموال الكافية لتنفيذ أهدافها .

٦ – توفير الاطارات الفنية اللازمة لمختلف المشاريع التي ينتظر ظهورها الى حيز الوجود أو تلك التي يتم التوسع فيها ، من أجل دوام سير الآلة الحربية ومختلف فروع الانتاج .

٧ – تحقيق التوزيع العادل في مجالات العمل والانتاج والاستثمار بما يؤدي لزيادة الانتاجية ورفع كفاءتها ونمو مردودها من جهة ، ورفع مستوى

معيشة المواطنين من جهة ثانية بما يحمي الجبهة الداخلية ، ويوفر لها القوة والمنعة اللازمتين من جهة أخرى .

وبصورة عامة فان الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي من شأنها احداث تغييرات أساسية في البنية الاقتصادية للاقطار العربية تمكنها من تجاوز مرحلة التخلف واللحاق بركب الأمم المتطورة ، الى جانب توفير القاعدة الاقتصادية السليمة التي تتطلبها عادة مرحلة الصمود والمعركة .

ثامناً — الاطار الملائم للاستراتيجية الاقتصادية العربية :

هناك حقيقة لا بد من تداركها على الرغم من مشاعر الأسى الذي تحدثه في نفوس أبناء الوطن العربي، وهي أنه لا توجد في الوقت الحاضر أية استراتيجية اقتصادية للعالم العربي ككل ، كما أنه لا توجد لكل من الاقطار العربية على حدة استراتيجية اقتصادية مستقلة وخاصة بها . وانما توجد بعض العمليات التكتيكية — اذا جاز التعبير — تتبدى في المجال القومي ببعض مظاهر التعاون في مجالات التبادل التجاري كالاعفاء من الرسوم الجمركية وغيرها أو التخفيض في هذه الرسوم أو القيود الادارية المفروضة على هذه المبادلات بين تلك الاقطار ولبعض المشروعات المشتركة المحدودة . أما في المجال القطري فتتبدى من خلال بعض الخطوط الانمائية التي لا تتعدى أن تكون خطط مشاريع أكثر من أن تكون خططاً اقتصادية لمجموع فروع الانتاج والاستهلاك والتوزيع وغيرها من الفروع الاقتصادية الأخرى .

واذا كانت لا تتوفر في مثل هذه الظروف الصعبة التي تمر بها الأمة العربية مثل هذه الاستراتيجية ، وكانت الستراتيجية بصورة عامة ، سياسية ، اقتصادية ،

عسكرية ، عدا عن كونها (فن) فانها (وسيلة) لتحقيق الأهداف التي تحددها لها القيادة السياسية، وكانت ايضاً الخطوط أو السياسة التي تضعها هذه القيادة انما تنبع من الفلسفة أو العقيدة السائدة فيه، أي أنها السبيل لتحقيق هذه الفلسفة والعقيدة، فانه من الأمور البدهية أن الوحـــدة الاقتصادية العربيـــة ، عدا عن كونها العقيدة النابعة من ضمير كل عربي ، وتعبر عن حاجات الأمة العربية ، بالاضافة الى كونها مطلباً قومياً وجماهيرياً ، فانها ضرورة استراتيجية لهذه الأمة وأقطارها المعرضة لتحديات الاستعمار والصهيونية .

ولهذا فان الوحدة الاقتصادية العربية ، وهي اقصر طريق لبلوغ الوحدة الشاملة، تعتبر الاطار السليم والصحيح لتحقيق الاستراتيجية الاقتصادية للعالم العربي، خصوصاً وأن الوطن العربي هو أكثر حاجة واضطراراً للأخذ بمثل هذه الاستراتيجية والعمل بمقتضاها .

فلا العدو الشرس المتمثل بالاستعمار والصهيونية بعازم على التخلي عن أهدافه في التوسع والعدوان في أرض الوطن العربي وفرض التبعية والتخلف على أقطاره وأبنائه ، ولا أمراض التخلف التي تنهش في جسم الأمة العربية براغبة بالارتداد عن هذا الجسم والتوقف عن نخره ، إلا اذا تسلحت هذه الأمة بالقوة والمناعة الكافيتين اللتين سوف تحققهما الوحدة ، سواء من حيث حشد مختلف الامكانات والموارد والطاقات البشرية والمادية المتوفرة في أرجاء الوطن العربي أو في حسن استخدامها على أفضل وجه وبأقل الكلف .

التنسيق الصناعي
بين الأقطار العربية

د. أحمد مراد

جرى الحديث كثيراً في السنوات الاخيرة حول التنسيق الصناعي بين الاقطار العربية. واتخذ مؤتمر الاقتصاد بين العرب في السنة الحالية، في دورة انعقاده الثانية في بغداد، توصية باجراء تنسيق صناعي بين الأقطار العربية وفق اساليب محددة. وأحب اليوم أن القي بعض الضوء على طريقة التنسيق الصناعي المتبعة حالياً في مجلس الوحدة الاقتصادية، ونواقص هذه الطريقة، الأمر الذي أدى الى حديث كثير وعمل قليل في هذا المضمار. للوصول الى ذلك سأعرض النقاط التالية :

أولاً — التكتلات الاقتصادية الرأسية والأفقية :

يمكن من الناحية الاقتصادية — الاجتماعية ، تقسيم التكتلات الاقتصادية الى نوعين :

١ — تكتلات رأسية .

٢ - تكتلات أفقية .

لقد سيطر اسلوب التكتل الرأسي في القرن الماضي والنصف الاول من القرن الحالي من خلال ربط اقتصادات المستعمرات والبلدان التابعة باقتصادات المتروبول . ان هذا النوع من التكتل هو تكتل امبريالي . وقد تم هذا التكامل بدافع مذهب حرية التجارة ، ومثاله الكومنولث . أما التكتل الأفقي فيسود عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية . ويقوم على أساس التكامل الافقي لاقتصادات متقاربة من حيث المستوى الاقتصادي — الاجتماعي ، والموقع الجغرافي ، في كتلة اقتصادية واحدة تتخذ احدى درجات التكامل الاقتصادي . وقد تمت هذه التكتلات على أساس مذهب التدخل ، ومثالها مختلف أنواع التكتلات الاقتصادية المعاصرة .

إن الخاصة الاساسية ، أي الخاصة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، التي تميز التكتلات الاقتصادية الرأسية ، إنما تكمن في ربط اقتصاد بلدين أو أكثر من مرحلتي تطور اجتماعي مختلفتين . وذلك عن طريق إدخال الاقتصادات الزراعية للبلدان المتخلفة في عملية إعادة الانتاج المجتمعي الرأسمالية المتطورة . أما الخاصة الأساسية ، أي الخاصة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، التي تميز التكتلات الاقتصادية الأفقية ، فتكمن في ربط اقتصاد بلدين أو أكثر من مرحلة تطور اجتماعي واحدة ، وذلك عن طريق دمج اقتصاداتها ببعضها وتشكيل سوق مشتركة لها .

ثانياً ــ أنواع التكتلات الاقتصادية الحالية :

يمكن تقسيم التكتلات الاقتصادية التي تسود عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، من حيث النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي يسود البلدان اعضاء الكتلة الواحدة، الى ثلاثة انواع :

١ ـ تكتلات اقتصادية للبلدان الاشتراكية ، وهي تتمثل في مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة (الكوميكون) .

٢ ـ تكتلات اقتصادية للبلدان الرأسمالية الاحتكارية كالسوق الاوروبية المشتركة ، ومنظمة التجارة الاوروبية الحرة .

٣ ـ تكتلات اقتصادية للبلدان النامية كالأسواق المشتركة، العربية والافريقية والامريكية ـ اللاتينية .

إن هذا التقسيم ، على عكس تقسيم وبيلا بالاسا ، هو التقسيم الاقتصادي ـ الاجتماعي ، أي التقسيم وفق الطبيعة الاقتصادية ـ الاجتماعية للتكتلات الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية .

إن القوانين الاقتصادية الموضوعية التي تحكم عملية التكتل الاقتصادي في البلدان الاشتراكية هي القوانين الاقتصادية للنظام الاشتراكي ، وخاصة قانون التطور المتناسب المخطط . أما القوانين الاقتصادية الموضوعية التي تحكم عملية التكتل الاقتصادي في البلدان الرأسمالية ، فهي القوانين الاقتصادية للنظام الرأسمالي، وخاصة قانون المزاحمة . وفي البلدان النامية يتأثر مفعول القوانين الاقتصادية الرأسمالية، الى هذا الحد او ذاك :

١ ـ بوجود قطاع عام ذي سعة معينة .

٢ - بتخطيط التنمية الاقتصادية بدرجة معينة من الشمول .

٣ - بالتحكم بعملية إعادة الإنتاج المجتمعي ، في مجالات الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك بدرجة معينة من القدرة على التحكم .

٤ - بتأثيرات العلاقات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية ، التي تجعل للقوانين الاقتصادية الاشتراكية مفاعيل معينة على اقتصاديات البلدان النامية .

ثالثاً — الاسلوب الاطاري أو الهيكلي للتنسيق الصناعي :

لقد اعتمدت الأسواق المشتركة بجميع أنواعها اسلوب توحيد سوق البلدان الأعضاء عن طريق اتخاذ إجراءات في نطاق السياسة الاقتصادية بهدف ايجاد شروط واحدة للنشاط الاقتصادي للبلدان الأعضاء ككل . ان الاتفاق على اطار موحد للسياسة الاقتصادية يؤدي الى اعمال مفاعيل القوانين الاقتصادية الموضوعية ، وخاصة قانون المزاحمة ، على مستوى بلدان السوق المشتركة . وتسمى هذه الطريقة في التنسيق : الاسلوب الاطاري للتنسيق .

لقد اعتمدت السوق الاوربية المشتركة ، ومثلها التكتلات الاقتصاد الرأسمالية هذه الطريقة في التنسيق . إن هدف السوق الاوربية المشتركة « هو خلق منطقة واسعة تحكمها سياسة اقتصادية مشتركة ، وتشكل وحدة انتاجية جبارة تسمح بالنمو الاقتصادي المستمر ، والاستقرار الأكبر لمستوى الأسعار والارتفاع السريع لمستوى الحياة ، وعلى الأخص بتنمية العلاقات المنسجمة بين الدول الاعضاء » . والمبادىء الخمسة الاساسية التي تؤمن هذا الهدف هي :

آ - حرية تداول السلع بين الدول الأعضاء

ب - توحيد السوق ضمن أطر سياسة اقتصادية مشتركة

ج – حرية انتقال الأشخاص والخدمات ورؤوس الاموال بين الدول الأعضاء

د – اصدار التشريعات الضرورية لحماية المنافسة

ه – توحيد السياسة الاجتماعية بين الدول الاعضاء .

ولم تشتمل مواد الاتفاقية الـ ٢٤٨ على احكام تتعلق بالتنسيق الصناعي .

إن تفاعل القوى السوقية ضمن التنظيم الاطاري يسمح بأن يواجه كل فرع صناعي، في كل بلد عضو وضمن التنظيم الاطاري ، وضعين موحدين ومتضاربين :

١ – توسيع سوق هذا الفرع الصناعي عن طريق ضم الاسواق الأخرى اليه .

٢ – تعريضه لمنافسة الفروع الصناعية المماثلة في البلدان الأخرى والتي تود ضم سوقه اليها .

إن الصراع التزاحمي للمنشآت الصناعية المختلفة يؤدي الى تنسيق الفروع الصناعية المماثلة لصالح الفروع الصناعية الأقوى عن طريق التصفية او الدمج .

رابعاً – الاسلوب التخطيطي للتنسيق الصناعي :

أما الكتلة الاقتصادية الاشتراكية ، الممثلة بمجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة ، فانها تهدف الى :

١ – التحسين المنهاجي للاقتصاد الوطني

٢ – الاسراع في تحقيق التقدم الاقتصادي والتكنيكي

٣ – تصنيع البلدان الضعيفة التطور

٤ – الزيادة المستمرة لانتاجية العمل

٥ – التحسين الدائم لمستويات المعيشة

وللوصول الى هـذه الأهداف طورت بلدان مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة أشكالاً جديدة من التعاون الاقتصادي منها :

آ – التخصص والتعاون في فروع الانتاج فيما بينها

ب – البناء المشترك لمؤسسات صناعية

ج – الاستثمار المشترك لمصادر المواد الأولية والطاقة .

د – التعاون التكنيكي في بناء مؤسسات صناعية كبرى

هـ – التعاون العلمي التكنيكي والمساعدة العلمية والتكنيكية المجانية .

ولا يهدف مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة الى اقامة سوق واحدة حرة، بل الى اقامة سوق منظمة ، بالاتفاق ، لكل سلعة من السلع التي يجري تداولها في هذه السوق .

ان التنسيق الصناعي في هـذه الكتلة الاقتصادية ، يعتمد الاسلوب التخطيطي للتنسيق .

إن التنسيق المخطط لفروع الصناعة لا يخلق المجال لعمل القوى السوقية التلقائية ، بـل يسمح بالاستفادة من جميع الطاقات المتوفرة ويضع الأسس اللازمة للاستفادة منها .

ان لهذا الاسلوب صعوبات متعددة يتعلق أهمها بـ :

١ – اسس توزيع الصناعات بين مختلف البلدان الأعضاء .

٢ – اسعار تبادل المنتجات بين البلدان الأعضاء . ورغم هذه الصعوبات فإن هذا الاسلوب في التنسيق الصناعي يحقق فوائد كبرى ، داخلية وخارجية ، ناجمة عن التخصص والانتاج الواسع وتركز المشاريع . وقد ساعد الاسلوب التخطيطي المتبع في بلدان مجلس المعونة ، والملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج على السير في هذا الاسلوب . ومن فوائد هـذا الاسلوب الاستفادة من جميع الطاقات المتاحة وتنسيقها دون تحطيم طاقات متاحة عن طريق قانون المنافسة .

خامساً ـــ حالة الأسواق المشتركة في البلدان النامية :

مازالت الأسواق المشتركة في البلدان النامية ضعيفة التطور . وبسبب عدم نمو القوى الاقتصادية بشكل كاف فإن العوامل المعنوية تمثل في هذه الزمرة من التكتلات دوراً بارزاً . ويرجع ضعف تطور هذه الزمرة من الأسواق لعدد من العوامل منها عدم وضوح الطرائق والأساليب ، واختلاف مستويات التطور والامكانات ، واختلاف وتبدل السياسات ، وتباين بنية التنظيم الاقتصادي بين الدول الأعضاء .

إن الاسلوب الاساسي الذي اعتمدته هذه الزمرة من التكتلات الاقتصادية هو توحيد السوق عن طريق الاجراءات الجمركية والتجارية . ولكنها لم تستبعد امكان استعمال اساليب انشاء المؤسسات المشتركة وتنسيق المشاريع . وفي سبيل حماية الصناعات الصغيرة الناشئة في البلدان أعضاء هذه الكتل لجأت هذه البلدان الى الاحتماء وراء متاريس الاجراءات الإدارية والكمية وغيرها ، بحيث تعطل في الواقع سير عملية الاندماج الاقتصادي لهذه الكتل الاقتصادية .

سادساً ـــ خصائص اتفاقية الوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة :

تحتل الأقطار العربية والسوق العربية المشتركة مركزاً خاصاً في كتلة الأسواق المشتركة للبلدان النامية ، وتتميز السوق العربية المشتركة عن الأسواق الأخرى لهذه الكتلة وعن مجموع التكتلات الاقتصادية الاخرى في العالم بما يلي :

آ ـــ تتألف هذه الكتلة من أقطار ذات قومية واحدة . فالعامل القومي ، والعناصر المشكلة للقومية العربية تشكل عناصر ايجابية يمكن أن تدفع تكوين هذه الكتلة بأسرع من التكتلات الأخرى . وتعمق هذا التكتل الاقتصادي بجوانب أخرى للتكتل السياسي والعسكري والقومي ... الخ .

ب – تتألف هذه الكتلة من أقطار ذات اقتصاديات متنافرة . ففي بعض أقطارها يحتل القطاع العام دوراً قائداً كما هو الحال في القطر المصري والسوري والجزائري ، وتسير أقطار أخرى على مبادىء الحرية الاقتصادية الكاملة كالكويت والسعودية وليبيا ولبنان . وثمة أقطار تأخذ بدور التدخل الحكومي الى حد بعيد فتطبق حماية جمركية معينة كالعراق والأردن ، ويحظى القطاع العام بدور هام في الاقتصاد العراقي .

اننا نجد في اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة صراعاً قوياً تتداخل فيه المسائل القومية والاقتصادية ، وتتنازع عوامل التكتل والتفرقة مشكلة تذبذبات لا تخلو من تأثير قوى خارجيـــة ، الأمر الذي يخلق صعوبات خاصة في هذا التكتل رغم عوامله الايجابية . ان العامل السياسي يحتل أهمية كبرى في بناء الوحدة الاقتصادية العربية .

ان الماهية الاقتصادية الاجتماعية لاقتصاد الأقطـــار العربية مختلفة الى حد يجعل اتباع مفاهيم السوق المشتركة أو مفاهيم مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أمراً مستحيلاً من الوجهة النظرية ومن الوجهة العملية . وبذلك يصبح من الضروري أمام الأقطار العربية أن تبحث ، هنا وهناك ، عن الطرائق المناسبة لواقعهـــا وأوضاعها ، وان ترسم طريقها الخاص للتكامل الاقتصادي والتنسيق الصناعي بين مختلف الأقطار العربية .

سابعاً – طريقة التنسيق الصناعي الحالية ونواقصها :

لقد عمدت بعض الأقطار العربية الى توقيع اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، وأحجم عدد من الأقطار عن الدخول فيهـــا بسبب المبادىء الشديدة الالزام فيها والتي لم تقبل بها هذه الأقطـار . وصدر قرار انشاء السوق العربية

المشتركة كمرحلة في إقامة الوحدة الاقتصادية. وودت بعض الأقطار العربية الدخول في السوق العربية المشتركة دون التوقيع على اتفاقية الوحدة الاقتصادية، فرفض طلبها لأسباب حقوقية محضة. وقد عمدت السوق العربية المشتركة الى إقامة سوق عربية واحدة بين البلدان الأعضاء عن طريق تثبيت القيود الادارية وتخفيف الرسوم الجمركية بصورة متزايدة حتى تزول هـذه الرسوم. وهذا يعني تشديد المزاحمة بين الصناعات العربية للأقطار اعضاء السوق على أساس قانون المزاحمة الرأسمالي. وقد قاوم عدد من الأقطار اثارة هذه المزاحمة عن طريق القيود الكمية والادارية. ان السوق العربية المشتركة تهدف الى ايجاد تنسيق صناعي عن طريق التجارة الخارجية.

نصت الفقرة الخامسة من المادة الثانية من اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية على تنسيق السياسة المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية وتوحيد التشريع الاقتصادي بشكل يكفل لمن يعمل من رعايا البلاد المتعاقدة في الزراعة والصناعة والمهن شروطاً متكافئة. كما نصت الفقرة الثانية من المادة الخامسة منها على أن تتألف مبدئياً لجان دائمة، ومنها اللجنة الاقتصادية لمعالجة الشؤون الزراعية والصناعية والتجارية والنقل والمواصلات والعمل والضمان الاجتماعي وقد تم تأسيس هذه اللجان وانبثق عن اللجنة الاقتصادية لجنة فرعية خاصة بالتنسيق الصناعي سميت اللجنة الفرعية للتنسيق الصناعي وتنمية الثروة المعدنية.

لقد تم تأسيس هذه اللجان، ومنها لجنـة التنسيق الصناعي، منذ عام ١٩٦٤. وهي تجتمع عند الحاجة لمناقشة المسائل المعروضة في جدول أعمالها وذلك قبل عرضها على مجلس الوحدة الاقتصادية العربية. ولم تتخذ هذه اللجنة أية اجراءات عملية حتى عام ١٩٦٦ عندما اتخذت توصية بأن تراعي الدول الأعضاء،

عند وضع خططها الانمائية ، الآثار التي تنجم عن إقامة صناعات متوازية . وإن لكل عضو أن يتقدم بمذكرة الى مجلس الوحـدة الاقتصادية إذا شعر ان تصرف عضو آخر يضر بصالحه من هذه الناحية . وأقرت هذه اللجنة في عـام ١٩٦٧ أنواع الفروع الصناعية التي يمكن اخضاعهـــا للتنسيق الصناعي ، وطلبت من الدول الأعضاء معلومات حول هذه الصناعات . وأقرت عـدم التعرض للصناعات القائمة وأخذها بعين الاعتبار فقط ، عند التنسيق الصناعي ، وأوصت بأن « تقوم الجمهورية العربية السورية باقامة مشروع حامض الليمون على أساس تأمين حاجـة السوق العربية المشتركة من هذه المادة » ويبدو من كل ما ذكر أن لجنة التنسيق الصناعي لم تبدأ عملها الفعلي بعد .

ثامناً ــ الخلفية الفكرية للسوق المشتركة وآثارها الضارة :

تقوم الخلفية الفكرية لاتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة على القوانين الاقتصادية الرأسمالية ومذهب التدخل الحكومي ، حيث تتخذ الاجراءات المناسبة بخصوص السياسة الصناعية . ويترك لقوانين المزاحمة ان تفعل فعلها .

ان الاسلوب الاطاري للتنسيق الصناعي والذي اخذت به اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ضمنا لا يتناسب والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة في الأقطار العربية :

١ ــ أن أسلوب التنسيق الاطاري القائم على مفاعيـــل القوى السوقية يحطم الطاقات المتاحة في الصناعات الاضعف ، وبذلك يزيد في اختلاف مستويات التطور الاقتصادي بين الاقطار العربية .

٢ ـ طالما كان هناك تبـاين ملحوظ في اطارات التنظيم الاقتصادي

للأقطار العربية ، فإن البلدان السائرة في طريق الاشتراكية تستطيع من خلال حصر تجارتها الخارجية ان توقف مفاعيل قانون المزاحمة بالنسبة لسوقها الخاصة . وبذلك تصبح عملية التنسيق الصناعي وحيدة الجانب .

٣ - يقتصر مفعول اساوب التنسيق الاطاري على الصناعات القائمة ولا يتعداها من حيث الأساس الى الصناعات المنتظر قيامها . وبسبب مستويات التطور تبقى عملية التصنيع متأخرة ، ولا تجري الفائدة الكاملة من تكامل عناصر الانتاج على مستوى الوطن العربي . وبذلك فإن اساوب التنسيق الاطاري لا يساعد على تأمين تنمية وتصنيع سريعين للأقطار العربية .

ولهذه الأسباب سارت عملية التنسيق الاقتصادي ببطء بالغ رغم تأكيد اهميتها العامة من قبل جميع الأطراف . وقد أثار بحث التنسيق الصناعي الكثير من الجدل في اجتماعات لجنة التنسيق الصناعي وتنمية الثروة المعدنية لعام ١٩٦٧ . ولم تأت هذه الاجتماعات بأي نتيجة عملية عدا قرار مشروع حامض الليمون وكذلك أثارت مسألة القيود الادارية والكمية مناقشات حادة في اجتماع مجلس الوحدة الاقتصادية العربية عام ١٩٦٩ بدون الوصول الى اي قرار في الموضوع .

إن التنسيق الصناعي بين الاقطار العربية يجابه وضعا ملائما من حيث عدم وجود عدد من الفروع الصناعية أصلا او وجودها ضعيفة ، وأهمها الفروع الصناعية الثقيلة والاستخراجية والانتاجية . وهو يجابه وضعا غير ملائم من حيث وجود عدد واسع من الصناعات الصغيرة المتوازية والضعيفة الانتاجية في اكثر الأقطار العربية . ولذلك فإنه لا بد من ايجاد طريقة تسمح بتجميع عوامل الانتاج الضرورية من الأقطار العربية المختلفة لتشييد فروع صناعية ثقيلة واستخراجية وانتاجية ، كما انه لا بد من ايجاد طريقة تسمح بتحويل الوحدات

الصناعية المتوازية الى وحدات كبيرة تعمل للسوق العربية ككل وذلك دون تحطيم الوحدات الصناعية الأصغر . ويجب أن يتم تحقيق هذا وذلك لتحقيق منفعة مشتركة أكبر لجميع الأقطار العربية

* * *

تاسعاً ـ التعاون الاقتصادي هو الاسلوب الجديد :

ان جوهر الوحدة الاقتصادية للأقطار العربية انما هو تكامل الاقتصاد العربي عن طريق التنمية الاقتصادية المشتركة ، ولا سيما التصنيع . ويجلب التعاون المشترك بين الأقطار العربية في ميدان التنمية والتصنيع القومي افضل النتائج . وتتبدى ضرورة هذا التعاون في :

آ ـ حاجة البلاد العربية كلها الى التصنيع بسبب تخلف اقتصادها وتبعيته وتجزئته واعتماده على محصول واحد .

ب ـ ضرورة التصنيع ذاته ، من توسيع السوق وتركيز المشاريع والاسراع بانشاء صناعات ثقيلة .

جـ ـ الضرورات القومية الناشئة عن وحدة الأرض واللغة والتاريخ المشترك والأهداف المشتركة ، وعن الشروط العالمية التي تتطور فيها حركة التحرر الوطني العربية ، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي وتحرير الأجزاء المغتصبة والمستعمرة من التراب العربي .

د ـ تحسين عمليات التنمية والتصنيع عن طريق تنظيم المنافسة وزيادة التخصص ورفع الانتاجية والاستغلال الجماعي للأنهر الاقليمية والمواصلات الاقليمية وحل مشكلات اكتظاظ السكان في بعض البلدان العربية .

هـ - تذليل صعوبات تمويل الاستثمار الاقليمي في البلدان العربية كلها باستخدام عائدات البترول بصورة اكثر مردوداً .

وإذا كان التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية ضروري من حيث المبدأ ، فإن اساليب وطرائق هذا التعاون يمكن ان تأخذ اشكالا مختلفة حسب الحال . ومن الضروري ان تراعي ساليب التعاون هذه اختلاف المناهج الاقتصادية والسياسية للأقطار العربية المختلفة ، واختلاف مستويات التطور الاقتصادي في الأقطار العربية المختلفة ، وضرورة تحقيق منفعة مشتركة لعموم الأقطار العربية ، وعدم تحطيم القوى والطاقات الانتاجية المتاحة .

ان التنسيق الصناعي بين الأقطار العربية يجب ان يقوم على اساس تعاون جميع الأقطار الأعضاء لتحقيق منفعة مشتركة . والأساليب التي يمكن ان تتبع في هذا التنسيق هي التركيز والتجميع والتخصص والتعاون وهذه الاساليب التي تحكمها عوامل القوى السوقية في النظام الرأسمالي يجب ان تستخدم بصورة واعية لاقامة صناعات عربية متكاملة بين الاقطار العربية .

إن التنسيق الصناعي بين الأقطار العربية يجب ان يشمل :

آ - تنسيق المشروعات الصناعية الجديدة في نطاق القطاع العام والخاص .

ب - تنسيق الفروع الصناعية القائمة حالياً في نطاق القطاع العام والقطاع الخاص .

عاشراً - تنسيق المشروعات الصناعية الجديدة في القطاع العام :

ان تنسيق المشروعات الصناعية الجديدة في القطاع العام انما يعني تنسيق خطط التنمية الصناعية في الاقطار العربية و / او الأقطار الاعضاء في اتفاقية الوحدة الاقتصادية . ان الاقطار العربية الاساسية تضع حالياً خططاً للاستثمارات

الصناعية والتوفيق الطوعي لبرامج الاستثمارات في المشروعات الصناعية الجديدة في القطاع العام . ويثير مثل هذا التنسيق بالطبع تبايناً واسعاً في وجهات النظر ويطرح مسائل لابد من وضع حلول لها مثل :

مكان اقامة المشروع : وهذه يمكن حلها باستخدام معاملات المنفعة القصوى لاستثمارات المشروع الصناعي .

ملكية المشروع : وهذه يمكن ان تكون ملكية عربية مشتركة على اساس مفاهيم الشركات المساهمة ، او ملكية للقطر الذي يقام فيه المشروع . وليس من الضروري اتباع طريق واحدة، بل يمكن اختيار الاسلوب لكل مشروع على حدة .

تمويل المشروع : يمكن اتباع مبدأ مساهمة حكومات الاقطار العربية في حالة الشركات المساهمة او يمول المشروع من القطر الذي يقام المشروع في أراضيه سواء بأمواله الخاصة ، او بقروض من الاقطار العربية التي تتوفر لها الامكانية المالية .

تسويق منتجات المشروع . وتمنع جميع الأقطار المشتركة استيراد منتوجات من نفس الصنف . ويجب ان تحدد احكام التسويق هذه في نفس اتفاقية اقامة المشروع بين الاقطار العربية .

ان هذا الاسلوب يؤدي إلى اقامة مشروعات صناعية جديدة مشتركة بين الاقطار العربية و / او الى اقامة مشروعات غير مشتركة ولكنها تتمتع بسوق الاقطار المشتركة كلها حصراً وتستفيد من مزايا الانتاج الكبير . وهذا لايمنع بالطبع الاقطار العربية من اقامة مشروعات صناعية لصالح سوقها المحلية الضيقة . ومن المفضل ان تكون هذه المشروعات صغيرة وذات اهمية قطرية .

ان الامر الهام في هذا الاسلوب ، ليس توزيع المشروعات الصناعية بين الاقطار العربية ، بل اقامة مشروعات مشتركة كأنابيب البترول ، واستثمار احواض الانهار واقامة شركات الملاحة المشتركة . ويستلزم التخصص في اطار اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية تركيز انتاج ما في قطر او عدة اقطار. ويجب ان يغطي الانتاج حاجات الاقطار العربية المشتركة . ويوفر التخصص الظروف الملائمة لبناء مؤسسات صناعية ذات طاقة انتاجية عالية ، تضمن تخفيض تكاليف الانتاج وتحسين نوعية المنتجات ويساعد التعاون عن طريق الاشتراك اوالتخصص في توسيع وتوطيد الروابط الاقتصادية بين الاقطار العربية وفي تطوير التعاون في حقل الانتاج .

ان تنسيق برامج الاستثمارات الصناعية للقطاع العام وبرامج التطور الاقتصادي للاقطار العربية يجب ان يطبق المبادىء التالية :

— اخذ النسب الضرورية تاريخيا للتطور الصناعي لكل قطر وللعالم العربي ككل بصورة صحيحة بحيث تتوازن معه الاقتصادات القطرية .

— تأمين جدوى سريعة للتنسيق الاقتصادي العربي ، اي تأمين وتائر سريعة لتوسيع الانتاج والتلبية الاكمل لحاجات السكان بفضل زيادة انتاجية العمل .

— الجمع بين اساليب التخصص الصناعي والتطوير الصناعي المتشابك لكل قطر عربي وذلك عن طريق استخدام المعطيات الطبيعية والاقتصادية للانتاج على النحو الافضل .

— محو الفروق التي نشأت تاريخيا في مستويات التطور الصناعي للاقطار العربية بصورة تدريجية بفضل استخدام الامكانات القطرية والامكانات.

العربية بصورة متناسقة . ان مثل هذا التنسيق الصناعي بين الاقطار العربية يستلزم :

آ – تطوير لجنة التنسيق الصناعي وتنمية الثروة المعدنية التي تجتمع عند الحاجة ، الى جهاز لدى المجلس الاقتصادي لتنسيق برامج الاستثمارات بين الاقطار العربية ووضع الاتفاقيات التنفيذية للمشروعات المتفق عليها .

ب – احداث جهاز تنفيذي لمتابعة تنفيذ المشروعات المتفق عليها وتنسيق العمل بين الاقطار المشتركة في هذا الميدان من ناحية التمويل والتوريد والتجارة الخارجية والسعر .

إن تجربة مكتب تنسيق الخطط الاقتصادية واللجنة التنفيذية لدى مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة يمكن أن تفيد في تلافي بعض الاخطاء التي يمكن أن تظهر في هذا المجال . ويمكن في اطار هذا التنسيق والتخصص توحيد شبكات الطاقة الكهربائية ، واقامة مجمعات للحديد والصلب والمنغنيز في تونس وموريتانيا والمغرب ومصر والسعودية والجزائر ، واستخراج وتصنيع الفوسفات من المغرب والاردن وسوريا والجمهورية العربية المتحدة وتونس ، وتطوير صناعات بترولية وبتروكيمائية متكاملة في نطاق الاستخراج والنقل والتوزيع والتصنيع للسوق الدولية ، واقامة مشروعات لتوليد الطاقة والري على النيل والرافدين .. الخ .

حادي عشر – تنسيق المشروعات الصناعية الجديدة في القطاع الخاص :

تنطلق اقامة المشروعات في القطاع الخاص من مبادرة اصحاب رؤوس الاموال ودراساتهم وتقرير اقامة مشروع معين على مسؤوليتهم . ويمكن اجراء

التنسيق الصناعي في المشاريع الجديدة للقطاع الخاص عن طريق توزيع المشروعات المشتركة الى النوعين التاليين :

- مشاريع ذات أهمية عربية وتقام على نطاق عربي .

- مشاريع ذات أهمية قطرية وتقام على نطاق قطري .

إن جهاز تنسيق برامج الاستثمارات المقترح إحداثه لدى المجلس الاقتصادي العربي يمكن ان يكون الهيئة المخولة بالتوصية على الموافقة على قبول مشروع ما في عداد المشاريع ذات الاهمية العربية والتي تقام على نطاق عربي ، وذلك وفقاً لمعاملات مختلفة مثل الطاقة الانتاجية وحجم السوق وغيرها . ويحدد في قرار القبول سوق هذا المشروع بحيث تقتصر سوق مثل هذه المشروعات على الأقطار التي لاتنتج اصنافاً مماثلة . وذلك كيلا تتضرر هذه الأقطار والمشروعات بعامل المنافسة . ومتى تقررت الموافقة على إحداث المشروع من قبل المجلس الاقتصادي العربي تؤسس هذه المشروعات ، حصراً ، على اساس شركة مساهمة تطرح اسهمها للاكتتاب للقطاع العام والخاص في جميع الاقطار العربية . ولا بد من السماح باستثمار رؤوس الاموال العربية على هذا الشكل ، في جميع الاقطار العربية الاعضاء ، استثناءها من منع استثمار رؤوس الاموال الاجنبية المطبق في بعض الاقطار العربية . ان تأسيس المشروعات الصناعية بهذا الشكل يمكن ان يمنحها حماية ادارية مطلقة من المنافسة غير العربية .

اما المشروعات الصناعية الاخرى ذات الاهمية القطرية فتتم اقامتها وفق السياسة الصناعية للقطر المعني وحده ودون التزام خاص للاقطار الاخرى .

ثاني عشر — تنسيق المشروعات الصناعية القائمة للقطاعين العام والخاص :

سارت الاقطار العربية ، اعضاء اتفاقية الوحدة الاقتصادية والسوق

العربية المشتركة خطوات نظامية في ميدان تخفيض الرسوم الجمركية . ولكنها اختلفت كثيراً حول موضوع تحرير التبادل التجاري من القيود الكمية والادارية ، وذلك للاسباب التي ذكرناها سابقاً .

ان الأسلوب الصحيح للتنسيق الصناعي بين الصناعات القائمة في الأقطار العربية إنما يكمن في اتباع أسلوب تخصيص أو تجميع المشروعات الصناعية سواء بالنسبة للقطاع العام أو بالنسبة للقطاع الخاص . وعن طريق تخصيص أو تجميع المشروعات الصناعية يمكن توسيع السوق وتخفيض تكاليف الانتاج وايجاد مشروعات صناعية كبرى ، وتطوير صناعة متقدمة .

آ – **التخصص** The Specialisation : ان معامل الغزل والنسيج مثلاً ، في القطرين العربيين المصري والسوري يمكن ان تتخصص في انتاج أنواع وغمر معينة في الغزول والأقمشة . ويمكن ان يطبق هـذا الأسلوب على الكابلات والبطاريات والمعلبات والادوية الخ ... ان مثل هذا التخصص يمكن ان يتم بين منشآت القطاع العام و / أو القطاع الخاص . وهـذا التخصص يبقي المشروعات الصناعية في أقطارها القائمة فيها ويفتح لها أسواق الأقطـار المشتركة في عقد التخصص .

ب – **التجميع** The Combination : يقوم التجميع الصناعي على دمج رضائي لمشروعين او اكثر من نفس الفرع الصناعي ، بحيث يؤلف المشروعـان من الناحية الحقوقية والاقتصادية مشروعا واحـدا مجمعا ذا انتاج متشابه او متكامل . ان مختلف انواع التجميع المعروفة عليا يمكن اتباعها في هذا المجال ، ويمكن ان يتم هذا التجميع بين وحدات اقتصادية حكومية و/او خاصة . وتتخذ هذه الوحدات شكل شركات او مجمعات مع الحفاظ على معامل الانتاج في

مناطقها القطرية القائمة بهـــا حاليا . وهكذا تصبح المشروعات الأصلية فروعا للمجمع الجديد الذي يمكن ان يتخذ له أحـد الأقطار المشتركة مقرا . ان مثل هذا التجميع ليس عملية حقوقية فحسب ، بل هو عملية اقتصادية . فهو يساعد على التخصص بين الفروع المختلفة والاستفادة من الامكانات التمويلية بصورة افضل ، كما يستطيع توزيع انتاجه في مختلف اقطار المشروعات الأعضاء .

ان اتفاقيات التجميع واتفاقيات التخصيص تسمح بتأسيس وحدات اقتصادية أكبر بكل ما لها من مزايا . وتكون هذه الاتفاقيات الاساس لاتخاذ اجراءات حكومية مناسبة بخصوص التجارة الخارجية للبلدان أعضاء الاتفاقية . حيث يمكن الغاء القيود الادارية والكمية بين البلدان أعضاء الاتفاقية ، وحصر سوق البلدان أعضاء الاتفاقية لصالح الأصناف المنتجة في المشروعات المتخصصة و / أو المندمجة دون مثيلاتها الممكن استيرادها من البلدان الأجنبية أو الأقطار العربية الاخرى . ان تطبيق القيود الادارية والكمية على منتجـــات الاقطار العربية خارج الاتفاقية يحرض المشروعات الصناعية في هذه الأقطار على الاندماج أو التخصص . ومن الضروري ، في حالة حصر السوق وفق ما ذكرنا تثبيت الاسعار لآماد طويلة أو وضع معايير لتقرير الأسعار . ومن الضروري أن يوكل للجهاز التنفيذي المقترح احداثه لدى المجلس الاقتصادي العربي صلاحية متابعة عمليات التخصص هذه وتشجيعها ومتابعة المسائل التنفيذية ، الحقوقية والاقتصادية الخاصة بها ، وخاصة مسائل التجارة الخارجية والاسعار .

في الختام : ان عمليات التنسيق الصناعي يجب ان تنطلق من الموافقة الحرة للأقطار الأعضاء في أي من التدابير المشتركة ، ومن عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي قطر من الأقطار الأعضاء . ان المنفعة المشتركة ، وأخذ المصالح

القومية والقطرية بعين الاعتبار مما الميدانان الاقتصاديان الهامان في اجراء تنسيق صناعي ناجح . وتشتمل المنفعة المشتركة على العوامل الاقتصادية والقومية .

إن دفع مسألة التنسيق الصناعي الى المقام الاول في عمل الهيئات الاقتصادية لاتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية هو أمر من الأهمية بمكان كبير من النواحي القومية والاقتصادية والاجتماعية وهذا يستدعي :

١ – دمج مجلس الوحدة الاقتصادية في المجلس الاقتصادي العربي ، ورفع سويته حتى رئيس أو نائب رئيس مجلس الوزراء ، وجعله دوريا ليمكن له اتخاذ القرارات المناسبة والملزمة ادبياً للحكومات الأعضاء حتى لاتتعطل قراراته اسوة بالقرارات السابقة المتخذة منذ عام ١٩٥٧ والتي لم يوضع قسم كبير منها قيد التنفيذ حتى الآن . ان مثـــل هذا المجلس بشكل ضرورة أساسية في المرحلة الحالية بعد نكسة الخامس من حزيران . ان هذا المجلس ليس بهيئة فوق الحكومات ، بل هو هيئة تنسيقية دائمة لعمل حكومات الأقطار العربية في المجال الاقتصادي .

٢ – تطوير لجنة التنسيق الصناعي وتنمية الثروة المعدنيـــة الى هيئتين دائمتين : احداهما لتنسيق برامج الاستثمارات والمشاريع المشتركة بين الأقطار الأعضاء ، والثانية لمتابعة الأعمال التنفيذية الناجمة عن تنسيق برامج الاستثمارات واقامة المشروعات المشتركة ودمج وتخصص الفروع الصناعية القائمة . وتكون هاتان الهيئتان جهاز المجلس الاقتصادي العربي بمهاته الجديدة وتركيبه الجديد .

إن هذه الطريقة يمكن ان تتلاءم واختلاف الانظمة الاقتصادية والاجتماعية واختلاف السياسات الاقتصادية ومستويات النمو الاقتصادي في الوطن العربي ، كما أنها يمكن أن تساهم في إخراج مجلس الوحدة الاقتصادية من الأزمة التي يعيشها .

شظايا من أشعار ماياكوفسكي

ترجمة : سعيد حورانية

— موسكو

لم يحتقر شاعر الكلمة الجاهزة ، المثقلة ، المتأنقة الورس ، المسجاة كمؤخرة ذليل ، كما فعل ماياكوفسكي .

مد يده العقداء .. يد الحطاب ، الى صلصال الكلمات ، المختلط بالروث وأوراق الزنابق الجافة ، ففرط عقد الحروف ، وشحن بحميا الصاعقة فواصل الكلم ، وأطلقها لغة بكراً متلظية ، أتعبت الآلهة ، ومرت في عروق فولاذ العامل ، تخرمش .. وتدغدغ .: وتنافس الهواء على نوافذ الرئة ، وتحمل الانسان إلى فلوات الخطر ، وتضع أمامه ، في ثانية ضوئية ، قضايا بحجم المصير . هذا الثائر ذو الجسد الهرقلي ، جسد الثورة ، كان لا يقبل بأقل من اللا نهاية ، وعاش بلأمة المحارب وحطم اكثر من طاحونة هواء وأغرق « بجماماته » مسوخ البيرقراطية . ومن هنا كانت عظمته ، ومن هنا أيضاً كانت مأساته الفاجعة .

(١)

منافق

هذا النوع من الناس هادىء
وبلا شكل كالهلام
وكثير منهم في أيامنا هذه
يرتقون ويصبحون عظماء
ما السبب .. ما السر ؟
كثيراً ما أفكر بذلك
ثروة هذا النوع هي موهبته
وطريقته في المداهنة الرقيقة
يلحس القدم
يلحس اليد
يلحس الوسط
وما تحت الوسط
كما يلحس الكلب الكلبة
أو القط القطة
ولسانه يمتد ثلاثين متراً
لكي يلحق برئيسه
مدهوناً برغوة الصابون

* * *

(٢)

النقـــد

اني أريد من النقد
أن يضرب مباشرة لا من الخلف
ففي ذلك الدليل الساطع
على طهارتنا وقوتنا

* * *

(٣)

مارش اليسار إلى البحار

استعدوا للمسير
لامكان للكلمات الجوفاء
صمتاً أيها الخطباء ..
الكلمة لك
أيها الرفيق ماوزر [١]
كفانا عيشة يحكمها قانون
أوجده آدم وحواء
سنسوق حصان التاريخ العجوز

---

(١) الماوزر : المسدس

يسار [1]
يسار
يسار

* * *

هل تخبو عين الصقر ؟
هل نلبس رث الثياب ؟
شددي يا أصابع البروليتاريا
قبضتك على رقبة العالم
افتحي صدرك المشدود الى الأمام
وغطي صفحة السماء بالأعلام
من الذي يخطو هناك باليمين ؟
يسار
يسار
يسار

* * *

(٤)

جواز سفر سوفيتي

لو كنت ذئباً لنهشت البيروقراطية
أنا لا أحترم الأوراق

(١) فضلناها على « يساراً » لدلالتها اكثر على مايريد مايا كوفسكي

فلتذهب أية ورقة إلى الشيطان
إلا هذه ..

* * *

انني أخرج من جيب سروالي العريض
هذا الحمل الغالي
اقرأوا واغبطوا
فأنا مواطن الاتحاد السوفييتي

* * *

(٥)

محترفوا الاجتماعات

ما أن يتحول الليل الى فجر
حتى أرى كل يوم
من يذهب الى الرئاسة
ومن يذهب الى اللجنة
ومن يذهب الى القسم
يتوزع الناس بين المصالح
وما أن تدخل المبنى
حتى يتفرق الموظفون الى الاجتماعــات
وقد أخذ كل منهم
خمسين ورقة هامة
تأتي فتقول :

– « ألا يمكنني أن أرى المسؤول
فانني انتظر من غابر العصور » ؟
– « لقد ذهب الرفيق ايفان ايفانوفيتش
إلى الاجتماع »

. . .

وترقب عبر مئات الدرجات
وتلعن العالم
ثم تعود فيقال لك :
– « طلب أن تأتيه بعد ساعة
فهو في اجتماع !! »
وبعد ساعة
لا السكرتير ولا السكرتيرة
المكان خاو
ذهب كل من هو دون الثانية والعشرين
الى اجتماع الكومسومول .
واقتحم الاجتماع
مشعث الشعر
مندفعاً كالتيار
فأرى انصاف اناس جالسين
بالاشيطان
أين النصف الآخر ؟

يقول السكرتير :

– « إنهم يحضرون اجتماعين في وقت واحد !! »

. . .

استقبل الفجر بأمل

أن يعقد اجتماع أخير

لاستئصال شأفة جميع الاجتماعات ..

. . .

(٦)

حديث مع الرفيق لينين

مضى اليوم

وهو يظلم رويداً رويداً

حافلاً بالأعمال والأحداث

ونحن اثنان في الغرفة

أنا ولينين

صورة على جدار أبيض

. . . (١)

. . .

. . .

. . .

(١) اشارة إلى أبيات رأيت حذفها .

نهضت من المقعد
متهللاً بالبهجة
أريد أن أحييه
وأقدم اليـــه تقريري

* * *

« أيها الرفيق لينين
اني ابلغك
من صميم القلب
لا بحكم العمل
أن المهمة الجهنمية
سوف ننفذها
وهي تنفذ بالفعل
إننا نكسو ونطعم
الفقراء العراة
ونضيء لهم
ويزداد استخراج الفحم والمعادن

* * *

ولكن الى جانب ذلك
هناك طبعاً الكثير والكثير
من شتى ألوان التفاهات والحثالات
والمرء يتعب من مقاومتهم

ومناهدتهم
وكثير بعدك استهتروا .
ويمشي الآن على أرضنا
ومن حولنا
الكثير الكثير من الأوغاد
لا عدد لهم ولا القاب
شريط طويل من النماذج يمتد
من الكولاك والبيروقراطيين والوصوليين
والمتكتلين
والسكارى
يسيرون منفوخي الصدور
بفخر
صدورهم موشاة بالنياشين
ولكننا بالطبع
سنقضي عليهم جميعاً
وإن كان ذلك أمرا
في غاية الصعوبة

وشربت وجهك في المساء

خليل خوري

— بيروت

وبكيت يا جسد الحبيبة
أن الرفاق المدلجين عمامة
تسقيك في ظمأ الثرى
المدلجين إلى لقائك في السرى
الطائرين على جناح الشوق
شوقاً أحمرا
جرحوك يا جسد الحبيبه
ياناعماً
يابؤبؤ العين الذي اكتحلت صباحات العسل
بصباحه ، وتنسم الليمون طيبه

جرحوك ، عفواً ، واحتملت ولم تزل
لسع اللهيب ، وما شكوت ، ولا الأمل
في مقلتيك اصفر
يا جسد الحبيبة .

وصرخت من جزعي مباركة
هي الآلام ، واخضر الصدى
ومبارك قلبي الذي يرضى صليبه

« يا أم الوحيد ابكي عليه
الموت مايرحم حدا »

ولأن وجهك هالة ،
ولأن قلبك وردة
ولأن سافية الردى تختار ،
لم تسقط ، أبا الأقمار ، لم تسقط سدى

غنيت وجهك في الصباح ،
وفي المساء شربته ،
وأضعت في سكوي الهدى

وحلمت أني صرت فيه خلية ، لوناً
نهاريا ، تغار الشمس ، يخضر المدى ،

وعلى زنادك اصبعاً
وحلمت أني صرت يا قمري يدا

غنيت وجهك باسماً
غنيت وجهك مجهدا
غنيته ، قلق الرجولة فوقه ،
لون العزيمة ، والتاعات الفدا

غنيته يسقي التراب الدفء
يغمره ندى .

وبكيت من حرقي عليه ، بكيت للقمر الذي
يهوي يغيب ، بكيت قلباً سيّدا .

لكنها همست باذني الريح فارتجفت يدي
ووجمت من جزعي . التفت رأيته
كتبت عليه الريح شيئاً مبهماً
حدقتُ : أبصرت الغدا .

« شو هم ّ ان الموت مابيرحم حدا » .

الخيمة والقمر

« رسالة من لاجىء فلسطيني إلى
رواد الفضاء الامريكيين »

صابر فلحوط

– صوفيا

– ١ –

في خيمتي هنا ..
ما همّني ،
إن تفلحوا القمرْ ،
إن تزرعوا جبينَهُ ،
مواسماً شهية الثمرْ
إن تعصروهُ خمرةً ،
إن تجعلوهُ جمرةً ،
إن تغرسوا في صدره ،

خناجراً ، من بعض ، بعض حبكمْ
إن تحرقوا جفونهُ
إن تفقأوا عيونَهُ

- ٢ -

ما همَّني ،
في خيمتي هنا
في الأسفل ألأسفل ،
من مغارة الشقاء ، والعنـــا .
أقتات بالنابلم ،
الممزوج بالرماد ،
بالعناد ، بالفجيعهْ
في تربتي الصريعهْ

- ٣ -

مذ جرحت كرامتي ،
مذ حالفت أكفنا الرصاص
واصطبغت جباهنا ،
بالثار والفداء .
أصبح من أعدائنا القمرْ
« لأنه يشي بنا ،
ويفضح الخبيء من أسرارنا ،
ونحن في طريقنا ،

عبر صحارى الموت والدمار ،
للثأر من عدونا »

- ٤ -

ما همني في خيمتي هنا .
ان تحرقوا القمرْ .
إن تشنقوا القمرْ .
إن تغرقوا القمرْ .
إن تركزوا راياتكم ،
في صدره ، في ظهره ،
في جنبه .
ان تضربوا نعالكم ،
في رأسه ،
في خصره ، في قلبه
ما همني ،
ان تمحي اسطورة القمرْ .
أن تلتوي أعنة السماءْ .
وتهتري بوابة الفضاءْ .
مادمت والصغار في ظلامة الحفر .
عيوننا ، مسروقة الضياءْ .
ما همنا أن ينطفي القمرْ .

- ٥ -

وتهتفون ،
من على وسادة القمرْ .
للأمن والسلام ،
لتخدعوا فصائل القطيع
من سوائم البشر .
تستوطنون الأرض بالوباءْ .
في القدس والسويس ، والفتنامْ .
وترفعون الصوت بالهتاف والدعاءْ !
للأمن والسلامْ !
وشاهد الجريمهْ .
أنيابكمْ ، أظفاركمْ ،
في أرضنا الكليمهْ ،
في خيمتي القديمهْ ،
في حفرتي المقيمهْ ،
يجعل مجـد مجدكمْ ،
في الأرض والسماءْ ،
اسطورة تلهث في ،
مواقد الهزيمه ..

المسجد الأقصى

نبيه شعّار

بَعْدَكُم ..
وهذا براق النبي توسّد سجن الشرايين .
والعابرون
يَعْرّون خصب العيون
فتبكي المصابيح في كل نبوه .
وهم يكنسون وجوه النبوّة ..

* * *

بعدكم ..
أقول : ألا تسمعون
طويل هو الليل في القدس يحضر في كل باب
نزيف اغتراب ،
أيقنع صوتي شريط العذاب ..؟

* * *

بعدتم ،
فياغائبين
تعالوا إليّ اعبروني
حبال النال تشدّ عيوني
مسارب خوفٍ وسكب جنون ..

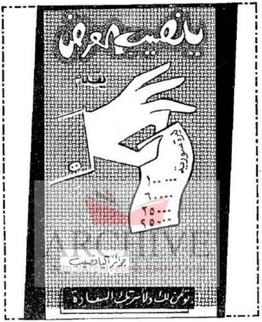
* * *

أنا الكلُّ
في البدء كنتُ
ومازلت في الكل بركان ثوره
أعلق أعناق عمري بحبل مسره
ويعرف سري شريط المذله ..!

* * *

أنا الجسر
في الرمل غصْت ، ولوّحتُ وجهَ المسامير والمطرقه !
أتدرون هذا الفدائي من أطلقَهْ
وفكّ إسار ظنوني ؟
ـ اذا ما عرفتم ، دعوا السر في الشعب ثم اتبعوني
وطوبى لمن يعرفوني
وإلا فطوباي أنىّ مشيت
تباركت . بوركت حياً وميت
وحين اوتميت

وانتم بعدتم
ضممتُ الحجاره
أزحت الستاره
وأغرقتُ طفلي في اليم علّ الحار
يعلّق في رأسه مقلتين
سأصنع منه - اذا عاد يوماً - فنار
وإن ضاع ، أقطع سبابتيّ ، أعيش انتحاري
وأجري سنابك خيلي لتذروه فوق جداري
فهذا الجدار جداري
أيبكون فوق جداري
وألبس هذا الدخان المغوليّ جبّةَ عار ؟





يجري سحب الاصدار الاستثنائي الثاني بتاريخ ٧ تشرين الاول ١٩٦٩

فصل من مسرحية غير مفهومة

د. حسام الخطيب

فجأة، مزقت السكون صرخة أنثوية حادة، صرخة استغاثة يائسة اختزلت كل ما في الطبيعة الانسانية من تعلق بالحياة وفزع لفقدانها في مرحلة مبكرة من العمر. كانت الصرخة عميقة عميقة، جارحة جارحة، يستحيل تمثل مادتها الصوتية. كانت أشبه بكشاف ضوئي مفاجىء لا يمكن أن يوصف بذاته، وإنما يتم تذكره عن طريق النقاط الغريبة التي يهجم عليها بأشعة ضوئه. كانت مجموعة من المعاني رددتها الأصداء التي تناثرت معها في الهوة السحيقة المنحدرة من أعلى نقطة في سفح التل الى أسفل نقطة في القعر.

على بعد قدم واحدة من حافة الهاوية أراني أقف مشلولاً بلا حراك ، معاني الفاجعة ، والفاجعة ، تنقض على مكان في رأسي كان يسمى سابقاً بالدماغ . خطوة واحدة الى الأمام وأتردى في الهاوية وتند عني صرخة كتلك التي زلزلت كياني وفطرت قلبي وتركتني مسمّراً على حافة الموت الرهيب . ما العمل ؟ وأي عمل وأنا على هذه الحالة ، ولم يبق من وعيي سوى أطلال غارقة في بحر من غيوم . وأي عمل ؟ حيث لا مجال لفكرة ولا مكان لحركة . خطوة واحدة الى الامام ومعها الانزلاق المريع الى اللانهاية المرعبة الدامية . خطوة الى الوراء ومعها بقايا نفس مشاولة مفجوعة يمزقها الشعور بالإثم ، بجريرة غير مؤكدة . وإذا كان الانسان فكراً وحركة فماذا بقي لي وأنا على الحافة ، أمامي الفناء ، وخلفي تل من العذاب والاثم والحسرة ؟

أضواء السهل الفسيح الذي حولته يد الانسان الى بنايات متراصة وشوارع متوازية ومتقاطعة تبرق أمام عيني ، فتزيد من وطأة صاعقة الظلمة التي تقدح عتمة في نفسي ، أهرب منها في مثل لمح البصر الى بقع شبه مظلمة ضاربة الى خضرة فائتة هي كل ماتبقى من السهل الذي كان خضرة غامرة في لحظة ماتت من الزمن الغابر . وأضواء المدينة تتلألأ في صفوف متوازية ومتقاطعة وتختلط في عيني الزائغتين وتتراقص وتتعانق وتقترب وتبتعد . كأني نقطة تائهة في أمواج متعاقبة من النور والظلمة . قبل حفنة من زمن كانت هذه الأنوار مبعث جمال ومتعة . قبل حفنة من زمن أتوا بي الى التل العجيب لأشهد أضواء المدينة من خلال ثغرة في السياج الشجري الذي يحيط بأعلى التل . كانت ظلال الاشجار تتستر على الهوة الرهيبة لتجعلها مرتعاً للاشباح والارواح والعوالم المجهولة . وحين اطللت من خلال الثغرة أمسكوا بي ... ياجنون خطوة وتنزلق الى

الهاوية ،احذر ... وحدّقت في الارض تحت قدمي . من الصعب رؤية الهاوية بأبعادها اللامتناهية . أشمّ انفاسها الغامضة وتصافح جلدة وجهي أنسامها ذات الروائح الغريبة الأليفة في وقت واحد . يا الله . ما أشدّ غبائي . دهراً عشت في المدينة ولم أر هذا المنظر . يجب أن تراه هي . يجب ، لماذا لم تقولوا لي من قبل لآتي بها الى هنا ؟ كانت دائماً تأخذ على المدينة التي حللنا فيها طلاب علم أنها مسطحة خالية من الزوايا . وكنت أؤمن في سري أن لكل مدينة لغزها . ولم اجرؤ على مصارحتها بذلك ، فقد كانت فكرتي غامضة وليس لها مايدعمها . ههنا سر (المدينة) . من هذه الفتحة يتم توالد الجمال والنور والحياة والابداع . ماذا لوتقدّمت . ماذا ؟ لاأصدق أن خطر الانزلاق في الهاوية هو الذي يحول بيني وبين النور والجمـــال . على المرتفـع المنتشي بخضرة الشجر ، أمامي السهل المبسوط المضيء المخطط المعمور ، فن الانسان وفن الطبيعة ، ولكن هذه الهوة السحيقة لاتسمح لي بعانقة الاشياء. لن يفهم أحد ذلك سواها، ولكن ماقيمة الفهم وقد أصبحت هي أنقاضاً ، ربما فهمت وربما لم تفهم ، لقد ولّت هي ، أصبحت لاشيء ، والهاوية باقية على حالها والنور والظلمة كذلك.. كأن لم يحدث شيء ، كأن لم يهو انسان قبل ثانية في غيابة الهوة . كأن لم تكن (هي) ، كأن لم يكن العالم .. كأن لم أذهب قبل حفنة زمن صغيرة الى منزلها في الطرف الآخر من المدينة . كأن لم أحرضها على المجيء .. تعالي نكتشف سر المدينة . كم كنت أود أن أقول لك إن لكل مدينة سرها وأنت لاتصدقين . كنت دائماً تأخذين على مدينتنا أنها مفلطحة كأنما قبرت سرها في صباح مشمس . كل مدينة لها سر ، امرعي . لالزوم للزينة،هناك الظلام قريب والنور بعيد . لم يرك أحد . لماذا لاتكونين طبيعية هذه الليلة . من أجلي لاتضعي مساحيق .

أرجوك .. نعم . كالعادة أنا مجنون . سايريني . تحرّكي والا ذهبت مندونك . . مالك تكره السيارة على المطاردة في الطريق التلي . سوف نهوى . تمهـــل . لن يضيع المنظر . أنا خائفة . خائفة . لن اركب معك بعداليوم . جنونك سيقصف شبابي قبل الاوان . . انت كلكل النساء ثرثارة هشّة أمام الخوف ، متصنعة عادية . سأريك سر المدينة . يجب أن نتهيأ لذلك ،بنفحة من الجنون وإلا فلن يتاح لنا أن نسبر الغور . اذا لم تصمتي فسوف ألقي بك من الهوة ،سأدفعك من الخلف وأستريح .

وفجأة ، مزّقت السكون صرخة انثوية حادة . صرخة استغاثة يائسة اختزلت كل ما في الطبيعة الانسانية من تعلق بالحياة وفزع لفقدانها في مرحـــلة مبكرة من العمر .

كانت الصرخة عميقة عميقة ، جارحة جارحة ، يستحيل تمثـــل مادتها الصوتية ، كانت أشبه بكشاف ضوئي مفاجيء لا يمكن أن يوصف بذاته ، وإنما يتم تذكره عن طريق النقاط الغريبة التي يهجم عليها بأشعة ضوئه . كذلك كانت الصرخة مجموعة من المعاني رددتها الأصداء التي تناثرت معها في الهوة السحيقـــة المنحدرة عمودياً من أعلى نقطة في سفح التل الى أسفل نقطة في القعر .

يُعذبني أنني لاأستطيع أن أتذكر ماحدث على حافة الهاوية . رأيتها تجتاز الممر الضيق بين الاشجار بأقدام ثابتة وبقصد واضح كما تقصد اليد بثبات أي موضع في الجسم . حذرتها أولا . اذكر ذلك ، وقفت . نظرت اليها . كان شعرها الأسود الغزير يحجب عني وجهها وعنقها وقسما من كتفيها ، كان يتحـــد بالعتمة المحيطة بهـا ، ولم يكن من سبيل لتمييزه سوى الذاكرة لا الحواس . كانت تقف في مدخل الفوهة تحجب عني الاضواء الممتدة في السهـــل الفسيح ،

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ماذا ؟ هل قلت لهـــا استديري قليلاً لعلي أرى منظرك الجانبي ، أم طلبت اليها ان تتنحى قليلاً الى اليمين أو الى اليسار لأنها كانت تحجب عني الضوء ، أم – يالهول – دفعتها بيدي ؟ بدي مازالت حتى الساعة في وضع امتداد ، وذاكرتي في حالة فوضى ، كفلم قديم مهترىء ، والصرخة الرهيبة المعلقة في الجو تئز في كياني باستمرار ، صرخة استغاثة يائسة اختزلت كل مافي الطبيعة الانسانية من تعلق بالحياة وفزع لفقدانها في مرحلة مبكرة من العمر .

هل دفعتها حقا ، بيدي ؟ بلساني ؟ هل انزلقت مختارة مدفوعة بحب الاكتشاف ؟ ماذا اكتشفت ؟ هل أنا المجرم ؟ أأنا مسؤول عن المصرع المأساوي لأعز انسان لدي ؟ ما معنى وجودي بعد الجريمة ؟ ما معناه قبلها ؟ هل حكم علي أن أتعذب بجريمة لست متأكدا منها؟ جريمة لا يستطيع أي قاض على وجه الارض أن يدينني بها ... ولا أن يبرئني ...

سأتوقف هنا ، سأبقى هنا ، وبباحث على واحد من تلك الأضواء المتناسقة المتوازية المتقاطعة . وربما .. وربما .. ما هذا اللغط من ورائي ؟ ما هـذا ؟ لقد جاؤوا في أثري . ربما شدوني الى الخلف فانزلقت الى الامام . كل شيء محتمل . كل شيء ممكن .. لأن كل شيء غير مفهوم عند حـــافة الهاوية الفاصلة بين الضوء والظلمة .

وجه على الأرصفة

عبد الرحمن مجيد الربيعي

– بغداد

-١-

السماء سقف ممدود تتمرغ فيه هامات وتمرح اقدام . والصدور تحلم بالمطر والانعتاق ، وعبد الله وحده يمسح لحيته الكثة بذهول وهو يهمهم باختناق ، لن تنطفىء نار المجوس في الأجواف ، ولن تقرع الدفوف مرة أخرى ، وستظل راكداً هنا أيها الصندوق المشحون بالشعر والخمرة ، ولكن صوتك أعلى ، ولكنك ستهمي كآبة ووحدة وينقع جبينك المخمور نثيث اليأس .

– أنا شاعر المائة مليون .

ثم يحمل ساقاً ليضعها على أخرى ، ويبدو متوحداً وزائداً وهو يلتصق على الأريكة كدمية مرعبة ، ولم يلتفت اليه أحد .

كانت الأشياء التي يعمر بها مقهى « عارف آغا » تبدو كالأسوار، تنحني فوق جسده المخمور وتظهره بوضع ينم عن العداء والثقل ، وفي شارع الرشيد لم

يبق شيء صامت ، وكانت الحركة الفوارة نشيده المتواصل ، حتى الأعمدة تبدو وكأنها تنبثق الى أعلى كنافورات ماء ضخمة تغسل الظهيرة وتحيل لفحها الى رطوبة ناعمة تتدثر بها رؤوس الباعة والعابرين .

– أنا شاعر المائة مليون .

ويهب محمود ضجراً ويعلن :

– حسناً ، وماذا بعد ؟

وكانت قبضته تضرب الطاولة ، وتتسرب الكلمات من فمه مرفقة بتأتأة ثقيلة ، ينهض بعد ذلك ، ويدس قدميه في حذائه المرمي تحت الأريكة ، وتبدأ قامته المخمورة بالدوران داخل المقهى .

– اسمعوا كلكم ، ستنتهون جميعكم كالبغـال ، ولن يتحدث التاريخ عنكم وأنا وحدي الذي ستخلد أشعاري كالقباب .

وهنا تحنح أحد الجالسين ، ومرت فترة صمت ملغومة كانت فيها عينا عبد الله تدوران بين الوجوه باحثتين عن الفم الذي أطلق احتجاجه ، وعندما لم تفلحا في ذلك تساءل :

– من فعل هذا ؟

ورد عليه محمود :

– لا أدري !

وأعلن عبد الله بصوت عال :

– ان من فعل هذا ...

وأخذ محمود يتهيأ لمغادرة المقهى بعد ان أصبح محاصراً بتهريج عبـد الله ، واندفعت شحنة من القرف الى مريئه فصرخ فيه :

– ما الذي تريد اثباته بعملك هذا ؟

– عالم تافه لن يفهمني !

ثم اردف :

– ابصق عليه .

– ٢ –

اخذ عبد الله يشتعل حرقة بينا كانت أصابعه الضامرة ترحل عبر خصلات شعر لحيته الطويلة لتبعد عنها العيدان والتراب اللاصق بها ، وكانت شفته السفلى تتدلى سائبة كالورم بينا يسيل اللعاب على جانبي فمه بغزارة ثم يتساقط على صدره العاري ، وكان لهاثه يعلو بينا تكتسي عيناه بغمامة من اليأس القاطع ، وكانتا تهومان ذاهلتين لا تستقران على شيء ، وبين لحظة وأخرى يردد أبياتاً من شعره يبتلع بعض كلماتها ويطلق الأخرى متخاذلة مرتجفة لن تفهم معانيها .

رجل منحت لحظاته للأرصفة والحانات ، يلتصق بالحيطان كالإعلان ، ثم ينسرب ليواصل ترنحه في الشوارع المظلمة .

– مدينة جاحدة ، انا عبد الله شاعر المائة مليون ، هيا استيقظي من رقادك واحتفي بحياتي .

ويجتمع حوله بعض السكارى ، يركله أحدهم ، ويصفعه آخر ، ويحيطون بـه مقهقهين ، يبصق عليه أحدهم :

– شاعر .. تف .

ويتحفز عبد الله محاولاً اختراق الحلقة المحيطة به ، فيصفعونه ويركلونه من جديد .

ـ سفلة ! انذال !

ويظل يصرخ ألماً وثمالة بينما تتعالى قهقهة السكارى ملتذة بمنظره هذا ، وعندما يسقط على الأرض يمسكون به من شعره الكث ويجرونه محاولين انهاضه. وعندما يفتح عينيه يضعون في يده قطعة من النقود . ويبزغ نهار آخر فيجد جسده مرمياً في الدرب أو في حديقة عامة ، ثم يزحف من جديد صوب مقره الدائم في مقهى « عارف آغا » .

كان محمود يتأمله وهو يدخن ويستسلم لإغفاءة طويلة يدور منها رأسه المليء بالكدمات .

صاح :

ـ اريد نارجيلة .

رد محمود :

ـ ليس معي نقود .

ـ لم تعطني شيئاً منذ مدة طويلة .

وقال محمود محاولاً انهاء هذا الحوار :

ـ حسناً .

وعندما استقرت النارجيلة أمامه ، جلس على الأريكة مثني القدمين ، ومد رقبته للأمام فبدت كالمدبوغة من لفح الشمس القوي . وحاول محمود تركيز نظراته في وجه هـــذا المخلوق المرمي الغائص في الخدر والنسيان دون أن تفلح ذاكرته في تسجيل ذكرى أو الحلم بشيء ، وتجمع حوله بعض رواد المقهى .

ـ اقرأ لنا شيئاً من شعرك .

ولم يرد عليهم ، كان ذائباً في عالم النرجيلة متعاملا معها بود غريب ، وهو يسند ظهره الى الحائط باطمئنان وانتشاء غير مهتم لأثر الركلات والصفعات على وجهه فكأنها شيء متمم لملامحه .

ــ لماذا لاتقرأ ؟

ورد بلا مبالاة :

ــ انتم لاتفهمون شيئاً .

ووضع احدهم في يده درهماً .

ــ هات الآخر وسأقرأ لك .

ــ ليس عندي الآن . غداً اعطيك ربع دينار .

ــ اذن سأقرأ قصيدة واحدة فقط .

ــ حسناً .

وبدأ يردد شعره ، والرذاذ يتطاير من فمه ، كانت قصيدة باردة يتحدث فيها عن غلام كان يرتاد المقهى ثم انقطع عنه منذ مدة ، وكان يبدو ضائعاً متوتراً متهافتاً كالتراب . الآمال تورق وتتفتح ملايين الزهور، ودجلة يفيض مرة اخرى راوياً الأرض العطشى ، وعبد الله وحده مخدراً بارداً لايتحمس لشيء ، وليس في صدره رفيف من اجل ان يغمس رأسه الموصد في بركة نور .

- ٣ -

عاد صوت الماضي ينبش لحظات الموت في هذا الرأس الملقى على الأريكة ، وليس هناك نجم يتوسط عتمة هذه السماء المقفلة ، الجدران عالية ، والعيون تجوس ، والتطلعات كلها تبدو مجرد مهزلة امام هذا الانحسار المريع ، هناك ممر طويل ، ورجل يمسك سوطاً وأكاليل الشوك تتدلى من عنقه ، لن يأتي الدفء ،

السوط يأكل الظهر والأفخاذ ، عبد الله يزفر ، يالها من فروض معتمة : اقتنص الأشياء عدالتها من هذه الهمهمة الولهى ، الجوع ، اللسان يتدلى . اختنق الكلاب . الشباب تحت الأقدام ، تسلية باهظة ، الزفير ، الحلكة في عالم الضوء ، وهل يطيق القلب خذلانك ايها الورم العالق في الوريد ؟ ايها الرمح المكسور : القمر كرة كبيرة من العتمة تمتص خيوط النور التي قد يمنحها فجر ما هناك ، عبد الله ، آه : واختفت الهمهمات وانطلقت الكتائب ، ايها الوجه المعفر بتراب الأرصفة والحيطان ، السوط افعى ميتة ، اصنع منها حزاماً ثم انهض يا عبد الله .

— انني جائع : لم تمنحوني الفرصة .

ثم تجمع من جديد ، طوى يديه حول ركبتيه ، واستخرج ورقة من محفظته القديمة الملقاة الى جانبه والتي تشكل ممتلكاته الوحيدة التي يحملها معه من حانة الى حانة ومن مقهى الى آخر .

— حذار من أن تذهب صحبة خدرك .

— ولماذا ابقى ؟

— الا تفكر بوضع رأسك على وسادة ما ؟

وفي دروب الكويت كان يحمل حقيبته وحزنه ، القلعة عالية ، والمحيطون به لا يدركون اغوار هذه البئر القديمة ، لن تكون كل الأرض له ، عيون العسس والمخبرين وحراس الحدود وهراوات الشرطة وليل الحزن والتشرد المريع .

— ولكنني عدت من الكويت .

— ولماذا فعلت ذلك ؟

— لأنني لم أجد فيها الحرية .

نادل المقهى يقف بعيداً منتظراً اشارة من احد الزبائن ، وعلى الجدران

العتيقة خطت حكم بائدة وتعاليم وزارة الصحة وارشاداتها ، وأمام عبد الله رميت اوراق عديدة سطر عليها ابياتاً من شعره الذي قاله في ذلك الغلام الذي مضى .

– كان الأجدر بكم ان تمنحوني الفرصة .

– ولماذا لا تمنحها أنت لنفسك ؟

– ساذج .

ثم يضحك .

وينادي نادل المقهى طالباً قدح ماء ، وبعد ان يشربه ويمدد ساقيه على الأريكة المقابلة يقول :

– لقد أمضيت ليلتي في أرجوحة احد النوادي ، يالها من نومة لذيذة فيها عودة للطفولة الصافية ، أحسست و كأنني طائر طليق يود لو يجرب الدنيا كلها معلناً عن حريته وفرحه . وكان فطوري زجاجة عرق . ماستكي حقه ١٦ ، عالم جاحد !

ثم تحسس لحيته الكثة ، وبدا ضجراً وهو يحرك عنقه المدبوغ ذات اليمين وذات الشمال ، واكتفى محمود بالابتسام وهو يتأمل هذه الخرافة المبهمة المرمية في المقهى مسورة بجذورها الأعمى ، وفي الخارج ، تحت الشمس والأمطار المنهمرة ، تفقد الأشياء طفولتها وتنخرط في هذا البؤس العريق الذي يسور المدينة والرؤوس والآفاق ، وقهقه عبد الله بصوت منفر :

– هل ابدو مضحكاً ؟

ثم أردف :

– حسناً اضحكوا ، الا تريدون نكتة جديدة ؟

ثم اعترته نوبة من السعال ختمها ببصقة كبيرة قذف بها أمامه ، فصفعت

محموداً موجة من القرف وود لو يلقي به خارج المقهى .

محمود يدخن ، وعبد الله يغفو بارداً كالحجارة ، وتبقى هذه الأفعـال منهاجاً لحياة هـذه الجثة المكبلة والتي تقول الشعر بسهولة كما تبصق أو تثرثر ، وتظل صرخاتها نداءاً مشوشاً في جوف المدينة لا يدين لعبة او وضعاً .

هـذه الجثة الغافية ستنهض وترحل عبر الطرقات ، وتنشر رداء من القتامة والاكفهرار على الأشياء ، وليس هناك من يجتمع ليسجل مراسيم احتفال ما بقدومها او رحيلها الغامض .

– ما بال جبينك ؟

يتحسس عبد الله جبينه بأصابعه المرتجفة ويعلن :

– لا شيء ، لقد اصطدمت بالجدار .

ثم يبتسم ويعود الى اغفاءته .

ويتساءل محمود في سره :

– ما الذي يجعله يمكث مراوحاً هنا ؟ لماذا لا يسرع ويرحل بعيداً ؟

ثم سحق عقب سيكارته وتساءل ثانية :

– ولكن الى اين يتجه ؟!

مع التيارات الفكرية

الأدب البلغاري لودميل ستويانوف (١)

د. أحمد سليمان الأحمد

إذا أردنا أن نشير إلى أحد الأسماء الكبرى في الأدب البلغاري المعاصر ، فلا بد أن نتوقف أمام اسم لودميل ستويانوف ، لأنه خلال طريقه الفنية أبدع آثاراً تعتبر اليوم صفحات هامة من تاريخ الأدب والثقافة في بلاده .

إن الآثار الأدبية التي أبدعها لودميل ستويانوف سجل تاريخي حي للحياة الشعبية خلال حقبة طويلة من الزمن . وهي آثار غنية ومتنوعة جداً . وتضم الأشعار والقصص القصيرة والطويلة والمسرحيات والنقد الأدبي .

(١) Ludmil Stoyanov ، بمناسبة مرور ربع قرن على الثقافة في العهد الاشتراكي ببلغاريا .

ومنذ أكثر من ستين عاماً ، يسير لودميل ستوياتوف في طليعة كتاب وطنه ، ويترك آثاراً ممتازة في شتى صنوف الأدب .

وإذا ما ألقينا نظرة على الدرب الفني الذي قطعه لودميل ستويانوف فاننا نراه درباً دائم الصعود . ولقد مر عبر الكثير من الحواجز والتعرجات وما إلى ذلك حتى وجد مكانه الحقيقي في الأدب والحياة فبرزت بذلك موهبته الكبيرة .

وتمكن ستويانوف ، الذي اشترك شخصياً في حربين لا مصلحـــة للشعب فيها ، وشهد كارثتين وطنيتين ، اقول تمكن من ادراك أن « حصون الفرسان » و « الأبراج العاجية » التي ظن نفسه حبيسها ، انمـا هي في الواقع لا تستطيع عزله عن الشعب وآلامه ومآسيه .

ولقد حدثت ثورة اكتوبر ومن بعدها الانتفاضة المعادية للفاشية التي قام بها العمال والفلاحون البلغار خـــلال ايلول عام الف وتسعمئة وثلاثة وعشرين وأغرقها الفاشيون بالدماء ، حددت نهائياً مواقفه كشاعر ومواطن .

وانخرط في صفوف الكتاب العاملين المناضلين ، وأخذ يكتب مقالات لاذعة ضد الفاشية ويحرر في صحف ومجلات تقدمية ، وينشر قصصاً وأشعاراً مفعمة بدمـــاء أبناء الشعب الذين استشهدوا وقلوبهم تشع آمالاً بالغد المشرق الحر .

ولم تكن روايته الواسعة الانتشار « كوليرا » ،والتي تعتبر من أهم الآثار في الأدب البلغاري ، لم تكن يوميات أليمة وحسب تسجل مجريات حرب عام الف وتسعمئة وثلاثة عشر الامبريالية ، في شبه جزيرة البلقان ، بل كانت وثيقة اتهام ضد مشعلي هذه الحرب .

لقد قدم الكاتب في هذه الرواية لوحات مؤثرة عن المآسي والكوارث . وأبطاله هم الجنود ، تلك الكتلة الرمادية من الرجال بلا أسماء ، التي تنصب عليهـــا مآسي الحرب الامبريالية . ولكنه لا يكتب فقط عن الحروب التي شارك فيها بل يلتفت الى المـــاضي أيضاً فيكتب « سيناب » التي هي تاريخ انتفاضة ، ومأساة شعبية رهيبة .

ان « سيناب » بطل من ابطال التاريخ البلغاري ، عاش في بداية القرن التاسع عشر عندما قضى الجوع الرهيب على منطقته الحبيبة « تشيتش » في جبل « الرودوب » . ومن الممكن القول أنه لا يوجد في الأدب البلغاري تصوير للكارثة الشعبية كما نراه لدى لودميل ستويانوف .

لقد صور كل ذلك بشكل مؤثر جداً ، وبوضوح ومهارة . فالجوع يخيم وينقض كالإعصار على سكان البلدة البائسة ، ويرتعش المرء أمام مآسي الكارثة ، وعلى الأخص اذا ما أدرك انها تعود الى أسباب اجتماعية أكثر منها طبيعية .

ولكن لودميل ستويانوف ليس شاعراً وأديباً كبيراً فحسب ، ليس كاتباً ومترجماً دؤوباً فحسب ، وانما هو رجل اجتماعي نشيط ، ومناضل جريء ومتحمس في سبيل السلم والصداقة بين الشعوب . ومنذ عدة عقود من السنين وهو في الصفوف الاولى بين رجال الحركة المعادية للفاشية ، يقوم بنشاط واسع جداً ومتنوع في الدفاع عن السلم ، والدفاع عن الحضارة والثقافة الانسانيتين .

لقد كرس لهذا النشاط الرحب أكثر من الف وخمسمئة مقالة نشرها في صحافة بلاده والصحافة الاوروبية عامة . وكممثل للمجتمع الثقافي البلغاري التقدمي اشترك عام الف وتسعمئة وخمسة وثلاثين في المؤتمر الدولي للكتاب في باريس للدفاع عن الثقافة، وبعد ذلك بعامين اشترك في مؤتمر كتاب العالم في مدريد . وتعرف في هذين المؤتمرين على عدد من كبار مفكري العالم كرومان رولان ، وهنري باربوس ، ومكسيم غوركي ، وأليكسي تولستوي ، وبابلو نيرودا وغيرهم .

وقد تعرض لودميل ستويانوف - نتيجة لنشاطه المعادي للفاشية - الى الملاحقة من قبل السلطة الملكية الفاشية . ولكن لم تستطع الفاقة ولا النفي ولا التعـذيب النفسي والجسدي أن تجعله يحيد عن طريقه . وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم أميناً لأفكاره ، لا تلين له قناة .

وبعد الانتصار الشعبي في التاسع من ايلول عام الف وتسعمئة وأربعة وأربعين، اندفع لودميل ستويانوف بكل ابداعه مسهماً في بناء الجمهورية الجديدة واهباً نفسه للنشاط الاجتماعي . وهو الآن عضو في مجلس السلم العالمي ، ونائب رئيس اللجنة الوطنية للدفاع عن السلم ؛ وعضو في أكاديمية العلوم البلغارية ، وفي العديد من المنظمات والمعاهد الاجتماعية والثقافية . وكان خلال فترة طويلة رئيساً لاتحاد الكتاب البلغار ونائباً في الجمعية الشعبية.

وسنقدم في ختام هذه الكلمة نماذج من شعر هذا الانسان الذي تميز بالعطاء الإبداعي، الذي جعله واحداً من مشاهير رجال الثقافة .

البَلقان

يا قلعةَ الارادةِ الالهية
الحانيةِ على الموتى كما على الأحياء ،
مِنَ السماوات ، ورأسُكِ يَلْمَسُ الجذور
تنبثقين مِنْ ذَهَبِ الحقول
تنفتِحُ في الأعلى هُوةٌ السماء
فاغرةٌ فاها ،
وتحتَ أقدامِنَا الأرضُ المحترِقة .
ومِثْلَ سَرابٍ خياليٍ في الصحراء ،
يتمدد جَسَدُكِ المتعَب
بين الشرق والغرب
هذين العِمْلاقين
وأنفاسُ القُطْب الجَليديّة
كثيراً ما تَصنَعُ مِنْكِ رؤيا وحشية
وكمْ مِنْ مَرّةٍ عندما تَشْرَبين في الخيال
أنخاباً نارِيّةً مَعَ الزُرْقَةِ المخلَوْلكة ،
تُصْبِحين العُشَّ المُفْتَرِسَ للبروق ،
والوكْرَ الخَفِيَّ للصاعقة
وأبناؤكِ الذينَ نشأوا في الشقاء
يُصْرَعُون دون انتظارِ الحصاد .

الثيابُ المُوَشاةُ بالذهب يعلوها الغبار ،
وتضيعُ اللازمةُ الغنائية التي يَصدَحُ بها الراعي
في الأفق ،
ورُبما كان الحظ قد كَتَبَ لنا
أن الحُب بفضلك يبقى الى الابد ،
أصلَبَ مِنَ الصوّانِ والذهَب .

عودة

أعُودُ مِثلَ « أوليس » أو « سندباد البَحّار »
مِنْ بِلادٍ رائعةٍ على مَدّ النظَر ،
هذا الشاطيء القريب ،
والبعيدُ مع ذلك
يَمتَدُّ مِثلَ قَوْسٍ مِنَ المَجْد .
الجبَل والشجرةُ والصخرة ،
كلُّها هُنا ، بخُطىً عِملاقة .
وعلى الرمْلِ ، بِلا صَخَب ،
ترقى الأمواجِ بأثوابِها المُلَوَّنة .
أجل ، سأقطَعُ الحقولَ والغابة
حيثُ يَستقبلُني موسيقيٌّ عجوز ؛
في مَعْبَدِ الاله ، وشمعةٌ مُشعَلَة
مِنْ أجْلِ الخاطِيء الذي يَعود .

صَقْرٌ شهبٌ ، مُنْدَفِعٌ ، مُحَلِّقٌ حتى القِمَمْ ،
سَيَهديني إلى جبالِ وطني ،
والسَّنَواتُ القاتِمةُ التي كُنْتُ ضَحِيَّتَها
سَتَتَاوَّى مُنْسابةً بِمَرَحٍ
في الوادي .
هكذا سأعود ، وربّما سأنسَى
الخطايا ، والأحلام الحزينة ، والسأم ،
وكلّ ما ذَرَوْتُهُ مِنْ كياني
في كل مَكان ،
وما حَمَلْتُهُ إلى بُلْدانٍ أُخرى .
ولكني أخشَى بالنسبة لي
- أنا الذي عرَفْتُ كيف أصوغ العَسَل
مِنْ أَلَقِ العالَمِ المُلَوَّن -
أخشَى أنْ لا تُحافِظ على عُمْقِ ذاكرتي
لا الأناشيدُ المقدسَة
ولا ماءُ السَّماء الأقْدس .

وطن

أباركُ القَمْحَ ذا السنابِلِ الذهبية
والريحَ الأصيلَّةَ تَرِنُّ مِثْلَ بُوقٍ
وشَبّابَةَ الراعي عِنْدَ هُبوطِ المساء

وهُوَ يَلُمُّ قُطْعَانَ الخَيْلِ المتأخرة
على الحقول التي خدَّرَها نوعٌ من الموت ،
الحقول التي تُغَطّيها جِراحُ شمْسٍ مُتَلَبِّثة ،
والنَّهْرَ في قَلْبِ القَصَبِ الهادىء
والدروبَ المُقْفِرَةَ بغرابة
المُتَصالِبة في شَبكاتٍ مُتَثاقِلة .
وفي حلقاتِها يَغِلُّ الموت
مُتَواضِعاً ، مُغيثاً ، رَحِيماً .
يُخَيَّلُ إليَّ كما لَوْ أنيَ كُنتُ هُنا ،
منذ قرون ،
في زمَنٍ مُفْرِقٍ في القَديمِ ،
لكنّهُ جدُّ قريب .
وتَبْدو ليَ الأرْضُ مَعْروفة ،
كما لوْ انيَ رَضِعْتُ مِنْ ثَدْيِيها ،
كما لو أنها كانَتْ مُرْضِعَتِي الأولى .
وأطْيابٌ ثقيلةٌ تُسْكِرُني ،
تَنْزَلِقُ في دمي ،
والأنفاسُ التي أجْهَدَها مَرَضٌ بلا اسْم ،
بَعْدَ أنْ أغْرَتْها رغبةٌ ساحِرَةٌ
كلُّ ذلِكَ يَكتبُ القصيدة ،
قصيدتي إلى الوطن .

زاهبون الى المجاعة

ريتيه دومون

برنار روزبيه

عرض وتلخيص : عبد الفتاح ملاحفجي

رينيه دومون مهندس زراعي ولد في فرنسا عام ١٩٠٤ وقد بدأ حياته الزراعية في مزارع الرز في طونكين احدى مدن الصين . وهناك واجه لأول مرة صراع الانسان ضد الجوع، فمزارع الرز هذه كانت مساحتها مليون هكتار وكان عليها ان تكفي لتأمين الحياة لمليون عائلة .. وقد حدثت بالفعل مجاعة في اقليم فيته ولم يسارع احد بمد يد المساعدة الى هذا الاقليم،وعاد دومون على اثر هذه المجاعة الى باريس ليشغل منصب استاذ في كلية الزراعة بجامعة باريس .

وقد كتب دومون كتباً عديدة عن الزراعة في فرنسا وفي العالم ، كما كتب عن تجارب الاصلاح الزراعي في عديد من البلدان : الاتحاد السوفييتي ، المكسيك ، وغيرها ، وكتب عن مشاكل الزراعة في افريقيا السوداء .

ولقد استمد رينيه دومون اكثر كتاباته عن تجاربه الخاصة واسفاره العديدة التي قام بها بهدف البحث والدراسة ، والفكرة الرئيسية التي يدور حولها دائماً هي مشكلة ايجاد التوازن بين حاجات البشر الغذائية وبين مصادر الغذاء

المتوفرة في العالم، وجاء كتابه « ذاهبون الى المجاعة» بالاشتراك مع برنار روزبيه حصيلة تجاربه وابحاثه عن مشكلة الجوع . ولقد قام بنجاح باستعراض المشكلة مبيناً الهوة التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم بين الحاجات الانسانية من الغذاء وبين كمية الانتاج الزراعي العالمي .

ولقد آمن دومون بالطريق الذي سلكته الصين في مكافحة الجوع وهو طريق الاعتماد على النفس قبل كل شيء والعمل الدائب . لذا فهو ينصح دول العالم الثالث بأن تتبنى الحكمة الصينية « اعتمد على نفسك أولاً » ، ولعل سبب ذلك يعود الى الصلة الوثيقة للكاتب مع التجربة الصينية .

ونستطيع ان نأخذ على الكاتب تشكيكه بجدوى التخطيط الزراعي الكامل بالنسبة للدول النامية ونصحه باتباع طريق وسط بين التخطيط الكامل وبين اقتصاد السوق، إذ ان فداحة المشكلة تتطلب في رأينا تدخلاً حاسماً من قبل الدولة في أمور الزراعة واعتماد تخطيط كامل وشامل لتأمين المستوى اللازم من المعيشة لجميع المواطنين . واذا كان عدد السكان في العالم قدزاد في الماضي بمعدلات ضئيلة نسبياً، فذلك لأن الموارد الغذائية لم تكن أبداً كافية ، كما أن ظروف الحياة لم تكن طبيعية ، فالمجاعات تحدث ضبطا Ajustement مأساوياً لعدد السكان في العالم مع الموارد الغذائية المتوفرة . وهكذا فان ١٥٠ مجاعة كبيرة قد أحاقت بفرنسا بين عام ١٠٠٠ ميلادي والقرن التاسع عشر .

وتأتي بعد المجاعة الأوبئة كعامل من عوامل ضبط عدد السكان ، ومن أشهر هذه الأوبئة الطاعون الأسود الذي قضى في عديد من المرات على القسم الأعظم من سكان أوروبا في القرون الوسطى وحتى في عام ١٧٢٠ أيضاً قضى الطاعون على ٦٠٪ من سكان مرسيليا . وفي **المقام الثالث** تأتي الحروب . ففي كثير من الاحيان كانت

الحروب « من أجل الخبز » تسبب الدمار الذي تحدثه المجاعة التي تسبب بدورها الأوبئة. وهكذا فان التوسع الديموغرافي للانسانية قد تم خلال الالف عام التي سبقت القرن الثامن عشر بمعدل وسطي منخفض جداً (أقل من ٠،١ ٪ في السنة) وبصورة غير منتظمة مطلقاً وذلك وفق منحن على شكل اسنان المنشار .

اما عن الزراعة فيقدر زمن وجودها بعشرة آلاف عام ، في حين انه قد مضى على وجود الانسان نحو مليون سنة . وفي خلال مئات الالوف من السنين اعتمد الانسان في غذائه على القطاف Cueillette .

وقد جاءت الثورة الزراعية لتسمح بنضال اكثر فعالية ضد المجاعات ، بما سبب دفعة سكانية فرضت بدورها تقدماً جديداً في أساليب الزراعة . ولكن هذا التقدم كان وقفاً على بعض الشعوب الأوروبية والآسيوية في حين ان أكثر الزراع الافريقيين لازالوا يستعملون حتى اليوم الوسائل البدائية .

ان تقدم الزراعة كان عاملاً هاماً من عوامل الثورة الصناعية بما قدمته لها من يد عاملة ومواد أولية وادخار وزبائن لمنتجاتها . ومن ناحية أخرى أدى التقدم في الزراعة بفضل تحسين الغذاء الى توسع قوي للسكان . وقد بلغ هذا التوسع السكاني حداً عظيماً في بريطانيا من عام ١٧٥٠ الى عام ١٧٦٠ ، وفي فرنسا من عام ١٧٦٠ الى ١٧٧٠ فكان له أثر على التطور الاقتصادي لهذين البلدين قبل ان يميل الى التوقف .

هذا وان التقدم في العلم والتقنية الصناعية قد قدم بالمقابل للزراعة خدمات كبيرة وزاد من نموها . ومن أهم عوامل التقدم الزراعي كان ادخال الأسمدة الكيمائية في القرن التاسع عشر وتحديث ومكننة الزراعة في القرن العشرين وهذين العاملين كانا نتيجة للتقدم الصناعي . وبالتالي فان التقدم الصناعي هو عامل من عوامل التوسع السكاني .

وهكذا فان الثورة السكانية الأزمنة الحديثة قد انطلقت منذ عام ١٧٥٠ في أوروبا الغربية وكان من أسبابها :

١ – تحسين الغذاء الانساني .

٢ – تحسين الشروط الصحية للانسانية .

٣ – إرتفاع مستوى المعيشة بشكل عام كنتيجة للتطور الاقتصادي .

وهذه الأسباب الثلاثة جميعها هي من نتائج الثورة الصناعية، وقدتضافرت لتعمل على خفض معدل الوفيات .

وقد ظهرت المراقبة الواعية على الولادات في ذلك الوقت كمنظم حديث لزيادة السكان . نستنتج من ذلك كله انه في « مجتمع زراعي » يكون ازدياد السكان ضعيفاً جداً ، وذلك لأن الفرق يكون بسيطاً بين معدل قوي للولادات ومعدل قوي للوفيات في حين انه في مجتمع صناعي يكون ازدياد السكان على العكس أقوى وذلك للفارق بين معدل ضعيف للولادات (نتيجة لمراقبة الولادات) ومعدل أكثر ضعفاً للوفيات (نتيجة لتحسين شروط المعيشة) وهو اكبر من الفارق السابق .

أما في بلدان ما يسمى اليوم بالعالم الثالث فالمشكلة تبدو خطيرة جداً . اذ ان الثورة الصناعية لم تدخل هذه البلدان الا بشكل جزئي ، بينا نجد ان مزايا الطب الحديث قد دخلتها بشكل واسع . وهكذا فاننا نشهد اليوم ، وبعد اوروبا بقرن ونصف هبوطاً مريعاً في معدل الوفيات في العالم الثالث بدون ان يكون هناك أية آلية معوضة . ان هذه البلدان ، حسب تعبير **سيولا** ، تتميز « بمعدل وفيات صناعي » الى جانب « معدل ولادات زراعي » ، اذ بينا وضعت انكلترا قرناً بكامله لتخفض معدل وفياتها بنسبة ٥٠ ٪ فقط ، فان سيلان حققت ذلك في مدى ٨ سنوات . وبالنتيجة فان هذا الأمر قد تمخض عن أضخم انفجار سكاني عرفه العالم حتى الآن . وفيا يلي مقارنة لمعدل النمو السكاني في بعض البلاد المتطورة وبعض البلاد المتخلفة في العالم اليوم :

بلدان متطورة		بلدان متخلفة	
فرنسا	٠،٧ ٪	فيتنام	٣،٦ ٪
بلاد اوربية أخرى	٠،٤ ٪	الفيلبين	٣،٧ ٪
الولايات المتحدة		المكسيك	٣،٨ ٪
وكندا	١،٨ ٪	فنزويلا	٤ ٪

وإذا أجرينا عمليات الحساب اللازمة نرى ان البلاد التي يعيش سكانها في حالة الجوع [1] تشهد ارتفاعاً سنوياً في عدد السكان قدرها ٥٠ مليون فرد منها ١٦ مليون في الصين ١٢ مليون في الهند ١٠ ملايين في بلدان الشرق الأوسط وأفريقيا و ٥ ملايين في بلدان أمريكا اللاتينية ، وذلك على الرغم من أن سكان هذه البلاد الحاليين يعانون من نقص في التغذية، واذا استمرت هذه الوتيرة، فان هذه البلدان التي تحتوي حالياً على ٢٢٠٠ مليون فرداً، أي نحو ثلثي عدد سكان العالم، سيكون عدد سكانها في عام ٢٠٠٠ خمسة مليارات، أي ٨٠٪ من سكان العالم المتوقعين وأكثر من ذلك اذا استمر معدل النمو نفسه بالارتفاع إذ انه لم يتوقف عن الارتفاع منذ ١٥ او ٢٠ عاماً .

وهكذا فان المجاعة تكتسح البشرية وبشكل جماعي . وهي وان كانت تصيب بعض الطبقات المعدمة من البلدان المتطورة (كالعجائز والعمال غير

---

(١) يفرق الكاتب بين نوعين من انواع الجوع وهما : نقص التغذية وسوء التغذية. أما نقص التغذية فهو ان يكون الغذاء غير كاف كمياً . ويبلغ عدد الذين يعانون من هذا النوع من الجوع في العالم بين ٣٠٠ و ٥٠٠ مليون شخص .

أما سوء التغذية فهو أن يكون الغذاء ناقصاً من الناحية النوعية . ويوجد في العالم ١٦٠٠ مليون شخص تقريباً يعانون من سوء التغذية ؛ وهذا يعني انهم يعانون بشكل رئيسي من جوع من البروتئينات .

المختصين) فانها تنوء بثقلها على البلاد الفقيرة ، إذ يموت ١٠ الى ٢٠ مليون شخص من أصل ٦٠ مليون كل عام بسبب نقص في التغذية .

إن جهاز الانسان الذي لايتلقى القدر الكافي من الغـــذاء يقوم بخفض نفقاته من الطاقة ويحد من نموها . وان الانسان الذي يفتقر الى الطاقة يتراجع أمام الجهد المادي والفكري ويصبح مرتعاً للجراثيم المرضية . وبمـــا انه تنقصه العناصر اللازمة لبناء وتجديد أنسجته، فانه لايمكنه ان يعرف نمواً جسمياً وعقلياً طبيعيين . ونتائج ذلك تبدو واضحة : معدل الوفيات قوي عند الأطفال ، أمل بالحياة ضعيف ، ضعف القابلية لبذل الجهد : يضاف الى ذلك كله سلسلة كاملة من الأمراض الخاصة بنقص هذا العنصر الغذائي او ذاك . ويصيب نقص الفيتامينات المناطق التي لاتستهلك شيئاً أو التي تستهلك قليلاً من الخضار الطازجـــة والبيض ومشتقات الحليب . ومن المعروف أن نقص الفيتامين ا يسبب اضطرابات في الرؤية او حتى كفافاً دائماً لايمكن شفاؤه كما يسبب إصابات جلدية . اما نقص الفيتامين د المصحوب بنقص في الكلس فانه يحدث الكساح rachitisme الكثير الحدوث عند الأطفال او يسبب تشوهات عند الأمهات .

وهكذا فالمجاعة المزمنة تصيب جميع أجهزة جسم الانسان بشكل لايمكن إصلاحه. فحتى اذا شفي الانسان المصاب من المجاعة ، فانه سيظل يحمل طوال حياته آثاراً جسيمة لحالته السابقة : ضعف القوى ، نقص الوزن ، اضطرابات هضمية وعصبية ودموية وجسمية ومرض السل .

آفاق النمو للانتاج الزراعي :

ان التقدم الضروري للزراعة في بلدان العالم الثالث يتطلب تطوراً مستمراً في انتاجية العمل الزراعي وهذا يتم عن طريق :

– استعمال افضل تقنية زراعية .
– اخصاب الأرض المزروعة .

(وهكذا فان منظمة التغذية والزراعة الدولية ترى بان الانتاج الزراعي في العديد من البلدان من شأنه أن يزيد بنسبة ٥٠٪ أو حتى يتضاعف تحت تأثير المخصبات العضوية والكيميائية المستعملة بشكل كاف مع وجود زراعة متناوبة ومنظمة بشكل عقلاني لمختلف المحاصيل) .

- تحسين النباتات المزروعة عن طريق الاصطفاء النوعي .
- حماية النباتات من الآفات الزراعية .
- الاستخدام الأمثل للماء .
- توسيع المساحات المزروعة .

ان هذه الوسائل ، حتى في حالة تطبيقها جيداً ، وهذا غير متوفر حتى الآن ، تبقى محدودة أمام الانفجار العظيم الذي يحدث في نمو السكان . أي أنه سيأتي اليوم الذي تصبح فيه جميع هذه الوسائل غير مجدية وذلك اذا استمر تزايد السكان على وتيرته الحالية .

الاغذية غير الزراعية كحل للمستقبل :

تجاه هذه الحدة للنمو السكاني في العالم الثالث وأمام الآفاق المحدودة نسبياً لتوسع الزراعة،فانه من الضروري معرفة ما إذا كانت هناك فعاليات أخرى من شأنها أن تقدم على المدى القريب للانسانية الجائعة الأغذية التي تنقصها . وقد تم حتى الآن معرفة ثلاثة أنواع من الأغذية التي من شأنها أن تحل محل الأغذية الزراعية :

فأولاً هناك الامكانيات الغذائية الغير مستثمرة في المحيطات وفي المياه الداخلية ، فبينما تغطي المحيطات والأنهار نحو ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية فانها تقدم حالياً أقل من ١ ٪ من الغذاء الانساني و ١٠٪ فقط من البروتين الحيواني الذي يستهلكه الانسان . هذا ويتشكل كل عام في قلب البحار نحو ٥٠٠ مليار طن من المواد النباتية التي تستهلك من قبل الاسماك التي تتغذى بالنباتات ، وهذه الاسماك تفترس بدورها من قبل الأسماك الكبيرة الآكلة للحوم . والوزن الكلي للأسماك المتوفرة سنوياً في البحار يتراوح من مليار الى مئة مليار طن ، وان جزءاً بسيطاً جداً من هذه الكتلة البيولوجية أي أقل من ٣ ٪ هو مستثمر حالياً ، أما بالنسبة للصيد في المياه العذبة الداخلية فانه يمثل نحو ١٥ ٪ من الانتاج الكلي للأسماك .

غير اننا اذا لاحظنا تطور ناتج السمك وصيده في مجموع الكرة الارضية منذ الحرب العالمية الاولى،فاننا نشاهد نموا سريعا لانتاج هذه المادة . ذلك انه مع معدل زيادة سنوية قدره ٦٫٣ ٪ (بالنسبة لاسماك البحار فقط) ، وهو المعدل القائم منذ١٥ عاما، فان انتاج السمك من شأنه ان يتضاعف كل ١٢ سنة . وخلال بضع عشرات السنين الاخيرة قلب التقدم التقني الاساليب التقليدية للصيد . فسواء فيما يتعلق بالتنقيب عن الاسماك ، او بسرعة الزوارق التي تحمل الشباك او باعداد وتعليب وتوزيع الاسماك فاننا نشهد تصنيعا حقيقيا للصيد في البحر ولتحويل الاسماك . ولكن هـــل يمكن زيادة وتيرة الصيد في البحر دون المخاطرة باتلاف المصدر ؟ ومع الاسف لاتوجد دراسة منهجية للمشكلة تقوم على جرد عام لموارد البحار . هذا ان التوسع في الصيد يواجه من ناحية اخرى مشاكل أخرى غير مشكلة ضعف الموارد ، وهي تقريبا نفس المشاكل التي تواجهها الزراعة من حيث اعداد الصيادين وادخال التجهيزات الحديثة وتنظيم شبكات النقل .... الخ

وقد فتحت آفاق هامة في مجال الصيد البحري والتغذية وذلك بامكانية تطوير انتاج « دقيق الاسماك » وخاصة الدقيق عديم الرائحـــة . ويرى المختصون بشؤون الغذاء بان دقيق الاسماك يمكنه بدون اي محذور ان يقدم من ١٠ الى ١٥ ٪ من نصيب الفرد من البروتئين ، بل واكثر من ذلك . ان هذا الغذاء الغني من شانه أن يشكل سلاحا فعالا في الصراع ضد سوء التغذية . ذلك انه اذا تم زيادة الانتاج السنوي لدقيق الاسماك الى ٩ ملايين طن ــ وهو ٣ ملايين طن عام ١٩٦٤ ــ فانه يستطيع ان يقدم مايعادل حاجة نحو ٣٠٠ مليون شخص سنويا من البروتئين ، وبذلك يغطي قسماهاما من نقص هذا العنصر . وهذا الهدف من الممكن تحقيقه في عام ١٩٧٥ اذا استمرت الوتيرة الحالية لانتاج دقيق الاسماك .

ان الانتاج السنوي للاسماك يجب ان يزيد بشكل اكبر وذلك عن طريق تطبيق الاساليب الحديثة في الصيد والانتاج والنقل ، وبهذه الشروط يستطيع الانتاج العالمي للاسماك ان يتضاعف في مدة ١٠أعوام، في حين أن عدد السكان في العالم يزداد خلال هذه المدة بنسبة ٢٠٪ فقط . ولكن هذا الاستثمار المنهجي للبحار واستعمال مواردها لصالح الانسان يتطلب اعادة النظر في الاقتصاد العالمي وفي طبيعة التبدلات الدولية .

ثانياً : هناك الأغذية الجديدة التي هي على شكل خمائر . ان الخمائر الفطرية المجهرية يستعملها الانسان منذ عهود سحيقة في صنع الخبز ، وفي تحضير كثير من المشروبات المخمرة . والجديد في الأمر هو استعمال هذه الخمائر كغذاء بحد ذاتها ، ولقد فكر علماء الغذاء في ذلك منذ حوالي خمسين عاماً .

فبعد تجفيفها ومعالجتها بشكل مناسب ، تقـــدم الخميرة على شكل مسحوق او قطع مبروشة غير ذات طعم ، يسهل استعمالها ، وذلك بخلطها مع الاغذية التقليدية .

ان الخمائر يمكنها ان تساهم بحل مشكلة جوع البروتيئينات ، غير انها حاليا مثل دقيق الاسماك ينحصر استعمالها تقريبا لغذاء الماشية في البلدان الغنية وقد بدأت البلدان الشرقية، وخاصة الاتحاد السوفييتي ، بالاهتمام جديا بالخمائر من اجل الغذاء الانساني .

ولقد اكتشف العالم شامبانيا عام ١٩٥٨ بانه من بين المواد الناتجة عن تقطير البترول ، توجد الزيوت الثقيلة التي تشكل وسطا ملائما بشكل خاص لنمو الخمائر .

هذا وان مجموع شركات تصفية البترول في العالم تستطيع ان تنتج

(على اساس انتاجها من البترول لعام ١٩٦٦) نحو ٤٠ مليون طن من « الخمائر المركزة » اي نحو ٢٠ مليون طن من البروتئين الصافي (ذلك ان مسحوق الخمائر يحتوي من البروتئين ما يعادل ٥٠٪ من وزنه) أي نصف منتجات الماشية والصيد البحري . فاذا وزعنا خمائر البترول هـــذه على الذين يعانون من سوء التغذية في العالم ،فانها تؤمن لكل منهم نحو٢٥ غراماً يوميا من البروتئين الصافي، وهذا من شأنه ان يخفض الجوع الى البروتئين .

وتوجد اخيرا محاولات يقوم بها الكيميائيون لاكتشاف مركبات كيماوية من شأنها ان تستعمل كغذاء جديد . الا ان هـــذه المحاولات لاتزال في بدايتها،وهناك امل كبيرفي تقدمها، ومن اهم التراكيب التي تم الوصول اليها تركيب الـ « ميتيونين » .

وهكذا تفتح آفاق جديدة في مجال الغذاء الانساني ، ولكن استغلال الموارد الجديدة لايزال يصطدم بعقبات تجعل تقدمه بطيئاً .

المستقبل المرعب للانسانية :

ان الاهتمام يجب ان يتركز على مستقبل الغذاءالانساني في مختلف مناطق العالم اكثر من تركزه على الوضع الحالي لهذا الغذاء الانساني . انهذا المستقبل ماهو الا انعكاس امين لسلسلتين من التطور اتينا على شرحهما : تطور عدد السكان وتطور الانتاج الغذائي المرافق له ؛ وان هذين التطورين يمكن تلخيصهما بتطور الانتاج الغذائي للفرد . فمنذ عام ١٩٦٤ الذي كان عام خير بالنسبة للانتاج الزراعي نجد ان هذا الانتاج ، وخاصة القسم الغذائي منه،يتابع بصعوبة وتيرة النمو السكاني.وكذلك فان الانتاج المتوسط للفرد في العالم،الذي يشهد ركوداً مخيفاً منذعام ١٩٥٩، قد

بدأ يتناقص بشكل ملموس منذ عام ١٩٦٣ . وهكذا فان الوضع الغذائي يتدهور بشكل ينذر بالخطر. وا كثر من ذلك: ان هذه الظاهرة تخفي وراءها تفاوتا كبيراً بين البلدان المتصنعة وبلدان العالم الثالث . ففي الواقع ان الـ ٣٣ بلداً المتطورة او النصف المتطورة والتي تتمتع بمستوى غذائي مرتفع (٣٠٠٠ حريرة ، ٤٤ غراماً من البروتئين الحيواني في اليوم ولكل فرد) تشهد ازدياداً بطيئاً ولكن منتظماً في الانتاج الزراعي لكل فرد . وبالعكس فان التسعين بلداً المتخلفة ذات المستوى الغذائي المنخفض (٢١٥٠ حريرة ، ٩ غرامات من البروتئين) تشهد منذ عام ١٩٥٩ ، ورغم التوسع الزراعي ، انخفاضاً بطيئاً في الانتاج الزراعي لكل فرد .

« ان على الذين يرون هذه الازمة خطراً بعيد الاجل ، ان يعيدوا النظر بهذا الرأي : فالازمة هي نصب اعيننا » لقد اضطر ان يعترف بذلك أحد المستشارين الاقتصاديين للحكومة الاميركية في خطاب له القاه في شهر شباط من عام ١٩٦٦ .

وبدون أي شك يجب علينا أن نلزم الحذر في توسيع التطورات الحديثة ؛ ذلك ان كثيراً من العناصر غير المتوقعة يمكنها أن تظهر . ولكنه من الضروري مع ذلك ان نسعى الى التنبؤ بمستقبل غير مأمون ، وذلك حتى لا نقع بخطر الخداع الذي يجعلنا لا نعرف الاخطار التي تهدد الانسانية . فاذا لم يحدث اي شيء هام لتجنب الكارثة ، واذا استمرت النزعات الحالية كما هي ، فان المجاعة ، التي عززت مواقعها عام ١٩٦٦ في الهند ، تهدد بالانتشار في مجموع العالم الثالث .

ولقد اعدت المنظمة الدولية للتغذية والزراعة F. A. O للبلدان القليلة

التغذية قطراً فقطراً ، اهدافاً للانتاج ،وهذه الاهداف هي على قسمين :

ـ اهداف قصيرة الأجل (لغاية ١٩٧٥) تحسين النصيب اليومي للفرد من البروتئين الحيواني بنسبة ٥ ٪

ـ اهداف طويلة الأجل (لعام ٢٠٠٠) تحسين النصيب اليومي للفرد من البروتئين الحيواني بنسبة ٥٠ ٪

ونصل بذلك الى مشكلة اساسية، وهي مشكلة العلاقة الوثيقة الواجب اقامتها بين مشكلة الغذاء وبين سياسة التنمية الزراعية وسياسة التنمية الاقتصادية بشكل عام .

ان رفع الانتاج الغذائي الى ثلاثة اضعافه حتى غاية عام ٢٠٠٠ يجب ان يصبح المهمة الاولى لجيلنا الحالي اذا اراد أن يواجه تحدي التاريخ . وهذا يتطلب منه ان يلعب في آن واحد جميع الاوراق التي بين يديه :

ـ الاسراع في التنمية الزراعية ؛

ـ التوسع في استغلال جميع السلع الغذائية غير الزراعية ؛

ـ اعادة تنظيم التبادلات الدولية .

ولكن على الانسان ان يسيطر على التوسع العددي البشرية باتباعه هنا ايضاً عملا واعياً وذلك عن طريق مراقبة الولادات . وان عدداً من بلدان العالم الثالث سبق وأن تبنت سياسة فعالة لتخطيط الاسرة ، ويمكن ان تكون تجاربها مفيدة للبلدان الأخرى .

الزراعة في البلدان الغربية :

اننا نشهد اليوم ، وسنشهد في السنوات الآتية ، الانتقال من الزراعة التقليدية ، الوريثة المباشرة للحضارة الزراعية التي نشأت بالامس ، الى زراعة حديثة تشكل في المجتمع الحديث قطاعاً اقتصادياً يستعمل أساليب انتاج ذات طبيعة صناعية ، أي الى « زراعة بدون فلاحين » .

وبالرغم من مختلف العوائق التي تؤخر تقدمها ، فان الطاقة الانتاجية للزراعة الغربية التي تلاقي دعماً من جانب الحكومات قد ازدادت بنسب كبيرة منذ بضع عشرات من السنين الى درجة انه في عدة بلدان منها فرنسا اصبحت الزراعة قادرة على تجاوز الحاجات القومية . ويمكننا ان نقسم بهذا الصدد البلدان الغربية الى ثلاث زمر :

– بلدان متخصصة بتصدير المواد الغذائية المهيأة : استراليا والارجنتين وزيلندا الجديدة .

– بلدان مستوردة : المانيا وبريطانيا .

– بلدان مصدرة للمواد الغذائية غير المهيأة : فرنسا والولايات المتحدة وكندا . وفي الولايات المتحدة تأخذ المشكلة حجماً خاصاً ، فمخزونات الحبوب قد تراكمت من عام الى عام حتى أصبحت تمثل في حدها الأعظم عام ١٩٥٧ مقدار ١٥٠ مليون طن ، أي نحو ربع الانتاج السنوي للعالم من الحبوب . واذا كان يوجد في انحاء العالم مئات الملايين من الاشخاص الذين هم بحاجة الى هذه الفوائض ، الا ان القليل من هؤلاء يتمتعون الى جانب معدتهم التي تصرخ من الجوع بقوة شرائية كافيـــة . وكذلك فان الطلب الجاهز لبعض المواد (القمح ومشتقات الحليب) يقل عن عرض المواد الغذائية . وعلى هذا ، ألا يجدر بنـــا في هذه الظروف ان نتكلم عن سوء بيع بدلاً من أن نتكلم عن فائض انتاج وذلك كما يوحي لنا الفرد سوفي ؟

ان هذه البلدان ، وعلى الأخص الولايات المتحدة ، عليها ان تواجه أحد أمرين : فاما ان تحد من انتاجها لتوفيقه تدريجياً مع الطلب الجاهز الداخلي والخارجي، واما ان تتابع زيادة الانتاج وان تفكر في حلول جديدة . وهكذا

فان القانون ٤٨٠ يجيز للحكومة الامريكية اما ان تعطي هبات للشعوب الصديقة التي تكتسحها المجاعة ، واما أن تبيع الى بلدان صديقة وبشروط ملائمة لهذه البلدان الفوائض الزراعية الامريكية . إلا أن القانون ٤٨٠ هذا اعتبر كاجراء مؤقت بغية تصفية الفوائض المتراكمة ويستفاد منه بـ د متابعة أهداف سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، وذلك كما يقول نص القانون المذكور . فماذا يحدث إذا نفذت المخزونات ؟ ذلك ان هذه المخزونات بدأت بالانخفاض منذ عام ١٩٦٠ وذلك تحت تأثير القانون /٤٨٠/ ومشتريات البلدان الاشتراكية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة لصدور قانون أوسع من القانون ٤٨٠ وهو القانون الذي صدر عام ١٩٥٦ والذي يقضي بانشاء (مصرف للأراضي الزراعية) من شأنه العمل على تقليص مساحة الأراضي المزروعة .

وهكذا فان الطاقة الانتاجية للزراعات الغربية التي هي كبيرة اليوم ، مدعوة لأن تنمو بشكل أكبر لعدة أسباب : فمن جهة امكانيات واسعة للتقدم ، وذلك عن طريق نشر التقنية الحديثة وتحويل الزراعات التقليدية الى زراعات حديثة ، ومن جهة أخرى هناك أبحاث لا تزال تجري هدفها ادخال المزيد من التحسينات على أساليب الزراعة .

ولكن التوسع الزراعي في الغرب يتعلق بصورة رئيسية ومباشرة بالاسواق المتاحة له . ونظراً لأن هذه الأسواق هي غير كافية فان مساهمة الغرب في حل المشكلة الغذائية ستكون محدودة .

الزراعة في المعسكر الاشتراكي :

ان الفترة الواقعة بين عام ١٩٥٣ وعام ١٩٥٨ سجلت أسرع توسع في الانتاج الزراعي للاتحاد السوفييتي ؛ اذ حقق خلال الأعوام الخمسة هذه زيادة قدرها ٥٠٪ ، الا اننا يجب ان نذكر بأن المناخ كان ملائماً في تلك الفترة وان ٢٤ مليون هكتار من الاراضي

البكر المستصلحة قد قدمت بما تحويه من المخصبات المختزنــة محاصيل هامة من الحبوب . لذلك ، فبدون هذه العوامل ، فان هذا النهوض الزراعي لم يكن ليصبح بهذه القوة وعلى الأخص فيا يتعلق بالانتـــاج الحيواني وانتاج المواد الصناعية . هـــذا البرهان المعاكس سرعان ما تحقق في الفترة ١٩٥٨ – ١٩٦٦ التي شهدت تباطوءاً شديداً في التوسع الزراعي . ولقد ساعد على ذلك الصقيع والجفاف اللذان كانا على أشدهما في مواسم ١٩٦٣ الى ١٩٦٥ .

لقد أعطى ستالين في السابق الأفضلية للصناعة الثقيلة ، فكان لهذه السياسة أثرها السيء على الزراعة . وهكذا ، فمنذ عام ١٩٢٩ لم يستطع الاتحاد السوفييتي ان يحقق أية خطة من خطط الانتاج الزراعي . وان الـ ١٣ مليون طن المستوردة من القمح في عـــامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ قـــد كلفت نحو مليار من الدولارات . ورغم المحاصيل الجيدة لعامي ١٩٦٢ و ١٩٦٤ فان المخزونات من القمح لم تكن كافية ، وهذا ناتج عن انخفاض سعر الخبز الذي دفع الناس الى توزيعه على المواشي .

على العالم الثالث ان يعتمد على نفسه اولاً :

تستطيع البلدان المتخلفة ان تتشجع الى تطبيقة الصينيين بالاعتماد على النفس قبل كل شيء ، وذلك بان تبذل مزيداً من المجهود وان تحقق المزيد من الاستثمارات ذات الاصل الوطني وان تبـــدأ بتحديد النسل . وان الدلائل تشير الى ان نهوض بلدان العالم الثالث من تخلفها الهائل هي عملية صعبة ومن المستبعد ان تتم في أجل قصير . ولقد حاولنا ان نبرهن بان استمرار الاتجاهات الحالية تستطيع وحدها ان تدفع الدول المتخلفة الى اكثر المجاعات هولاً ؛ وحتى اذا استطاعت ان تكبح من جماح هذه المجاعة فان هذا يهدد البلدان المتخلفة بالوقوع بتبعية متزايدة تجاه مقدمي المساعدات الخارجية والغذائية منها خاصة وعلى الاخص الولايات المتحدةالامريكية . ولتجنب هذا الاستعمار الجديد فان على الدول الفتية ان تكنس امام باب بيتها ، وان تقيم النظام في داخله وان تخفض المشتريات البذخية ، وان تقلص الى اقصى حد ميزانية الادارة الحكومية . يضاف الى ذلـــك ان تقديم المزيد من الاغذية دون تحديد النسل سيؤدي الى وضع من الصعب معالجته ايضاً .

دور التضامن العالمي :

لقد ادركت البورجوازية في اوروبا الغربية في مطلع القرن العشرين الخطر الذي تمثله ثورة شاملة للفقراء في بلادها . الا انها لم تخش تحمل خطر حروب عالمية ؛ وانما قبلت بفرض ضريبة على الدخل ثم بتطبيق نظام التأمينات الاجتماعية .

ان الفوارق بين الدول قد اصبحت تشكل جزءاً آخر من عدم المساواة يضاف الى الفوارق الاجتماعية بين الافراد في الدولة الواحدة . وهذه الفوارق الدولية تزداد حدة كلما تطورت الدول المتقدمة بصورة أسرع ، وكلما بقيت البلدان المتخلفة مجمدة في نموها الاقتصادي وذلك وسط الانفجار السكاني الكبير . واذا تحققت المجاعة في غالبية العالم الثالث في مشارف عام ١٩٨٠ ، فان الغرب يمكن ان يصبح معزولا بشكل تدريجي . اذ انه عند ذلك سيفقد مصادر تموينه من المواد الاولية والبترول اولاً ، ومن ثم سيخسر بشكل واسع منافذه ، وسيؤثر هذا كله على معنوياته . وأن موقف الولايات المتحدة ، موقف الرئيس جونسون وهارولد ويلسون ليس من شأنه تجنب هذا التطور الخطير .

وفي الظروف الراهنة ، تقع على عاتق البلدان المتقدمة مهمة دفع انتاج الفوائض الغذائية ذات المنشأ الزراعي والمشتقات والحائز دون الاقتصار على اشباع المنافذ الجاهزة فقط . ان هذه الفوائض يجب ان توزع حسب الاعتبارات التالية : اولاً للتخفيف من حدة الكوارث الناتجة عن سوء المواسم الزراعية ومن ثم تحسين الغذاء البروتيني للنساء الحوامل والمرضعات ، وللاطفال الصغار حتى يصبحوا يافعين اقوياء جسمياً وعقلياً وهذا شرط اساسي من شروط التنمية .

وفي الدرجة الثانية ، من واجب الدول المتقدمة ان تمد البلدان المتخلفة بالمساعدات اللازمة لزيادة مردود الزراعة من اسمدة كيمائية وآلات زراعية وذلك حتى تنهض هذه البلدان بانتاجها الزراعي وتبدأ تدريجياً بالاعتماد على نفسها .

واخيراً ان على البلدان المتقدمة ان تعمل على اعادة تنظيم الاسواق العالمية بشكل يتيح للبلدان المتخلفة فرصة تصريف منتجاتها باسعار مناسبة وبمنأى عن تغيرات الظروف الدولية التي تنهك اقتصاد هذه البلدان . ويتم ذلك عن طريق تنظيم عقود للتبادل تراعى فيها مصالح البلدان المتخلفة . واما الاسعار فيتم تثبيتها على اساس تحليل اقتصادي يقوم به خبراء يمثلون كلا من البلدان البائعة والبلدان المشترية وذلك تحت اشراف المنظمات الدولية .

ان هذا التضامن العالمي يفيد الدول المتخلفة والدول المتقدمة على حد سواء . فهو يسمح لهذه الاخيرة بأن تعالج ازمات الانتاج فيها ويجنبها خطر تورم اقتصادي كما يمنع من انعزالها عن بقية اجزاء العالم . وكذلك فانه يسمح بعدم تبذير الثروات المحدودة لكوكبنا بتوزيعها على من يحتاجون اليها . ان قراء صحف يوم الاحد في مدينة نيويورك يغيب عن بالهم ان تلاميذ المدارس في افريقيا هم بحاجة الى الورق حتى يتعلموا القراءة والكتابة .

والتنظيم العالمي للتعاون الاقتصادي المقترح يمكن ان يعهد بادراته الى لجنة ادارة عالمية يجتمع فيها المعطون والمستفيدون مع عدد متعادل من الاصوات لكلا الطرفين . وهذه اللجنة تكون مسؤولة عن مشاكل الجوع وقضايا التنمية ويمكنها ان تكتسب مع الزمن السلطة الكافية لمعالجة هذه القضايا . وتعطى اولوية المساعدة لاولئك الذين عرفوا كيف ينظمون عملا مستمراً وجهداً كاملاً لمجموع السكان . والقضايا التي يجب ان تسترعي الانتباه اولا هي قضايا الاعلام والتربية ونشر وسائل منع الحمل .

المذهب العسكري الاسرائيلي (١)

هيثم الكيلاني

عرض : ظافر عبد الواحد

يبدأ الكتاب بشرح عوامل تكوين المذهب العسكري الاسرائيلي ، وبعد أن يتحدث عن الجيش الاسرائيلي ، يخصص باباً للحرب النفسية . فيلخص خطة الدعاية الصهيونية بالموضوعات التالية :

١ — الدعاية الموجهة الى الرأي العام العالمي .

٢ — الوسائل التي تستفيد الدعاية الصهيونية منها في دعاياتها الموجهة ضد العرب .

٣ — الدعاية الصهيونية الموجهة الى البلاد العربية .

أما باب المخابرات ، فيشرح أجهزتها ، ويلخص أغراضها فيما يلي :

١ — توفير المعلومات اللازمة لسلامة الدولة ولتوجيه سياستها الخارجية .

٢ — جمع المعلومات في اسرائيل والخارج عن النوايا والأعمال المعادية ، وتقدير قوة الدول الأخرى ونواياها تجاه إسرائيل .

(١) منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي — دمشق ١٩٦٩

٣ – التجسس لصالح إسرائيل ، ومكافحة التجسس ضد إسرائيل .

٤ – تعزيز مركز الدولة السياسي والاقتصادي بين الدول ، وبخاصة تلك التي تقيم أشكالاً من العلاقات السرية بينها وبين إسرائيل .

٥ – تعقب الأعمال الموجهة ضد اليهود الموجودين في مختلف أنحاء العالم ، وتخطيط وتنفيذ الأعمال المضادة لكل أذى أو ضرر يلحق بأولئك اليهود .

وأهم الوسائل التي اتبعتها إسرائيل للحصول على المعلومات اللازمة لها عن الدول العربية :

١ – تدريس اللغة العربيـــة على اختلاف لهجاتها المحلية في المدارس الإسرائيلية .

٢ – بعثات التجسس المؤلفة من أفراد وجماعات .

٣ – استخدام بعض الخونة من السكان العرب في الأرض المحتلة .

٤ – التصوير الجوي للمناطق والتحركات العسكرية العربية .

٥ – تبادل المعلومات مع مخابرات بعض الدول الأجنبية ذات الشبكات التجسسية القائمة في بعض الدول العربية .

٦ – استخدام اليهود ذوي الجنسيات المختلفة العاملين في منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، أثناء زيارتهم للدول العربية .

٧ – الاستفادة بما تنشره الصحف العربيـة من مقالات ومعلومات أثناء حديثها عن القضية الفلسطينية .

وبعـــد أن يسلط المؤلف الأنوار على الأدوار غير العسكرية للجيش الاسرائيلي ، يشرح مفهوم إسرائيل الكبرى في المذهب العسكري الاسرائيلي .

اما الباب السابع (الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية) ، فيشرح فيه المؤلف المذهب العسكري الاسرائيلي . فقد أنشأت إسرائيل لنفسها مذهباً

عسكرياً خاصاً بها ، مستندة في ذلك إلى موقعهـا وجغرافيتها العسكرية وتاريخ وجودها وطاقاتها البشرية والاقتصادية . ويتميز المذهب العسكري الاسرائيلي عن معظم المذاهب العسكرية الأخرى ، بتبنيه لتعاليم الدين اليهودي فيما يتعلق بشؤون القتال والأمور المعنوية. ويعدد المؤلف معطيات الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ، وأهمها عدم القدرة على تحمل حرب طويلة الأمد . ويبدو من هذه المعطيات أن هزيمة واحدة تكفي لإزالة إسرائيـل . ويلخص المؤلف أغراض الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ، ومفاهيمها ، وأسسها ، ولا سيما في الاعتماد على نقل المعركة إلى أرض العدو .

ويرجـح المؤلف أن المذهب العسكري الاسرائيلي مبني على المبادىء التالية :

١ ــ الهجوم
٢ ــ المفاجأة
٣ ــ الحركة
٤ ــ الحرب الصاعقة
٥ ــ المقصد .

وتنطلق اسرائيل في تبنيها مبدأ الهجوم من نظرية (الحرب الشاملة) . ولم تختلف جميع المذاهب العسكرية في أهمية المفـاجأة ، وقد استفاد القادة الاسرائيليون في هذا المبدأ من تجارب حرب الصحراء في شمـالي افريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية.

وأكد رئيس الأركان الاسرائيلي اعتماده على مبادىء الحركة المتوفرة لدى الجيش الاسرائيلي .

وتشتمل الحرب الصاعقة على أساليب مختلفة ، وأهم ما استخدمه الاسرائيليون منها :

١ – الاندفاع الرأسي .
٢ – الهجوم على النقاط الضعيفة .
٣ – الهجوم على جبهة واسعة .
٤ – التطويق .
٥ – الهجمات المركزية .

واتبعت اسرائيل في تحديد مقاصدها أسلوباً متدرجاً يجنبها إثارة الرأي العام العالمي . فهي تعلق عن مقصد قريب ، وتصوره على أنه المقصد الأخير الذي لامقصد بعده . وهكذا تنتقل من مقصد – بعد بلوغه – الى مقصد آخر ، حسب الأغراض المحددة في الخطة الاستراتيجية العامة . ويشرح المؤلف التكتيك في المذهب العسكري الاسرائيلي ، في العمليات الهجومية والدفاعية والخاصة . فقد ركزت اسرائيل جهودها على اتجاه عمليات سيناء ، أثناء عدوان حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وحشدت الجهود الجوي بكامله للعمل ضد سلاح الطيران العربي في مصر ، بحيث تم اخراجه من المعركة منذ الساعات الأولى من يوم ٥ حزيران . ثم نقل ذلك المجهود لتوجيه الضربة التالية الى سلاح الطيران العربي في سورية والأردن ، وكان ذلك سبباً لمنع القطر العراقي من زج كامل قواته الجوية في المعركة بالاضافة الى بعده عن أرضها . ويتوقع المؤلف أن يكون هذا النصر لسلاح الجو الاسرائيلي قد أدخل بعض التعديلات على خطط العمليات ، أو أن تكون هناك أكثر من خطة وضعت سلفاً ، ويرى أن حشد الطيران الاسرائيلي كله في سماء مصر كان مغامرة .

والمبدأ الذي يسعى الجيش الاسرائيلي الى تطبيقه ، ويجري مناوراته الدفاعية على أساسه ، هو استخدام المستعمرات ووحدات الدفاع الاقليمي في صد الهجوم ، ثم القيام بواسطة المشاة المحمولين والمدرعات والمظليين بنقل المعركة الى أراضي العدو فور بدء العملية .

وتعتبر العمليات الخاصة من أبرز العمليات التي قام بها الجيش الاسرائيلي منذ توقف القتال في فلسطين عام ١٩٤٨ . ومن هذه العمليات : الغارات ، عبور مجاري المياه ، الإنزال الجوي ، الكمائن والدوريات .

أما الباب العاشر والأخير من الكتاب ، فهو عن (استخدام صنوف الأسلحة) . وقد ناقش المعلقون العسكريون في اسرائيل مشكلة تزويد الجيش بأحدث الدبابات ، ورأى أحدهم أن هناك ثلاثة عوامل تحتم على اسرائيل شراء الدبابة الأفضل :

١ - توفر قوة إطلاق النار بعد ظهور الصواريخ المضادة للدبابات في المنطقة ، ويتطلب ذلك أن يكون المدى الأدنى لمدفع الدبابة ٣ كم وأن تكون الدبابة قادرة على دخول المعركة ضد الدبابات المعادية .

٢ - سماكة درع الدبابة ، لأن قنبلة المدفع المضاد تخترق سماكة ٣٠ سم ، وكلما زادت سماكة الدرع قلت سرعة الدبابة .

٣ - يجب أن تكون الدبابة سريعة وقادرة على اجتياز العقبات .

ويلفت المؤلف النظر الى أن الهدف من توحيد سلاحي المشاة والمظليين تحت قيادة واحدة هو انشاء تشكيلات مشـــاة - مظليين تتصف بالمرونة بحيث يسهل استخدام أكبر قسم من الوحدات لإلقائها بالمظلات ، أو حملها بالطائرات ، أو نقلها بالسيارات والعربات نصف المجنزرة ، أو سيرها على الأقدام .

وقد ظهر في حرب ١٩٦٧ في سيناء ، أن المدفعية المقطورة ، كانت عاجزة عن مرافقة نمط المعركة الحركي ، وعن الحركة خارج الطرق في أرض رملية ، ولهذا فقد اقتصر استعمالها على عدد من الكتائب تسير على الطرق وتدعم الأرتال المكلفة بفتح الطرق الرئيسية .

وتقوم وحدات هندسة الميدان بفتح طرق موقتة ، وحفر الخنادق ، وتنظيم منطقة التجمع .

ومن مهمات سلاح الطيران في حالة الدفاع :

١ - القيام بعمليات الاعتراض للطائرات المهاجمة .

٢ - تموين المستعمرات المنعزلة .

٣ - التعاون مع القوات الأرضية .

٤ - مهاجمة قطع أسطول العدو .

٥ - القيام بعمليات عزل ميدان المعركة .

وقد اتجهت الاستراتيجية الاسرائيلية الى تحديد مهمات السلاح البحري بالنقاط التالية :

- الدفاع عن السواحل ضد القصف البحري والتسلل والتخريب .

- منع النزول الى الساحل .

- منع البحرية العربية من امداد القوات البرية العربية في سيناء .

- التسلل الى الموانيء العربية لتأدية مهمات التخريب ، وهي المهمة الهجومية الوحيدة .

وفي نهاية الكتاب ثمانية ملاحق : الأول عن صفات أهم أسلحة الجيش الاسرائيلي ، من مدافع ميدان ومدافع مضادة للدبابات وصواريخ ضد الدبابات

ومدافع مضادة للطائرات وقطع بحرية وطائرات مقاتلة ودبابات . والملحق الثاني عن الطائرة فانتوم ، والثالث عن الصاروخ ماترا ٥٣٠ ـ ر ، والرابع عن الصاروخ شافيت ـ ٢ ، وفي الملحق الخامس اسماء الذين توالوا على رئاسة أركان الجيش الاسرائيلي وتاريخ استلام وترك كل منهم منصبه . أما الملاحق الأخيرة فهي مخططات العمليات في سيناء والضفة الغربية والقنيطرة .

* * *

لقد كان المؤلف من كبار ضباط الجيش السوري ، وهو كاتب استراتيجي معروف بتحليلاته الصائبة ، وقد اعتمد في هذا الكتاب على مجموعة من المصادر العربية والأجنبية ، ولاسيما المصادر الاسرائيلية ، ليقدم لنا صورة دقيقـة عن المذهب العسكري الذي مازالت اسرائيل تطبقه منذ عام ١٩٤٨ ، لنرى فيـه مواطن القوة والضعف ، فنستطيع أن نصيب منها مقتلا .

تحت مظلة نجيب محفوظ

رياض عصمت

عالم نجيب محفوظ عالم رحب كثير العطاء يرصد تطور الواقع ويتطور من خلاله ليكون دائماً على مستوى الحدث التاريخي . إن هذا النمو الفني ليس من قبيل الدعاية أو الموضة ، وإنما هو أمر حتمي يليه الانتقال السياسي والاجتماعي والاقتصادي من الاستعمار إلى الاستقلال إلى الثورة ثم أخيراً النكسة ، وهو بالتالي انتقال من الرواية التاريخية إلى الواقعية الاجتماعية إلى التعبيرية باتجاه تتزايد حدته ومعاصرته . وإذا كانت « ثلاثية » محفوظ رصداً لثورة ١٩١٩ ، « والسمان والخريف » رصداً لثورة ١٩٥٢ ، و « ميرامار » للتناقضات في مجتمع ما بعد الثورة ، و « خمارة القط الأسود » لمفهومي الوهم والعبث وكيف يتسنى للانسان تجاوزهما عن طريق التمرد ، فإن مجموعة قصصه ومسرحياته الجديدة « تحت المظلة » خطوة للتعبير عن احساس حاد بالنكسة .. احساس يرتفع لمستوى الفلسفة الإنسانية ، ويختلط بالعنف والجنس والموت والرعب والهزيمة .

إن محفوظ يفسر (ضمناً وفنياً) الصورة التي أدت للنكسة . وهنا لا بـــد من الإشارة إلى أن النكســة لم تكن لكاتبنا دجـاجة سمينة تفرخ بيضاً من ذهب ، بل اقتصرت على كونها باعثاً ومحركاً خفيـاً يختفي وراء القصص والمسرحيات أحياناً وفي داخلها أحياناً أخرى . أمـا الأشكال التعبيرية فهي لا تنحو منحى التقييم والتوجيه والتبرير ، بل تكتفي بعرض رؤيا صغيرة أو بانورامية ، معقولة أو غير معقولة ، رمزية أو مبسطة ، لكنهـا على جميع الأحوال تفرد قتامتها أو ظلامها أو خوفها على واقع ليس إلا شريحة من الحدث التاريخي المأساوي الكبير.

القصة ـــ الصورة

بدأت قصص نجيب محفوظ في مرحلته الأخيرة تتخذ طابعـــاً أكثر تجريبية وربما غموضاً أيضاً . وبسبب هذه الظاهرة ، التي جعلت كاتباً مقروءاً يتحول إلى كاتب صعب أو مثير للدهشة وعدم الفهم عند القارىء المتوسط ، ليس سبباً مستورداً كما اعتقد بعضهم خطأ . السبب هو أن محفوظ تطور في أساوبه من « الرواية » إلى « الصورة » ، فأصبح فهم معاني القصة لديه ثانويـاً إلى جانب الإحساس بها ، تماماً كالقصيدة الحديثة ، إن حدس الفنان إذن لم يعد ينتقل للقارىء عن طريق الوعي وإنما عن طريق اللاوعي .. عـن طريق ما تبثه القصة من ردود فعل ، يلعب التكنيك والأسلوب دوراً عظيماً في ايصالها . مـن هنا يظهر التنوع الأدبي وعدم الثبات ضمن اطار اتجاه نقدي معروف ، فالأعمـال لا يهمها أن تتحدث بمنطق الواقع أو بمنطق الحلم ، انها رمزية ومكثفة وحسية ، تهتم بأن تعطي القارىء دلالات حيوية متحركة رغم غموضها ، ومرتبطة بالإنسان عموماً وبأزمتنا القومية الراهنة خصوصاً . وواضح منذ « خمارة القط الأسود » ،

ما أمدت به السينا الجديدة عالم الأدب من تأثيرات خلاقة ، ومن قدرات تخيلية انسيابية الرؤية . إن هذه المرحلة من أدب محفوظ (مرحلة القصة والمسرحية القصيرة) تسير بأصالة في خط مواز للموجات الجديدة في عالم الأدب ، بما يدل على أنه استطاع تغطية تطور الرواية العالمية من والتروسكوت حتى مارغريت دوراس في جيل واحد . لسنا بالطبع في مجال تقييم هذه الحصيلة شمولياً سلباً أو ايجاباً ، لكنها حقيقة لا بد من قبولها .

كانت أفعالكم كالظلام الذي يلفكم لا وجود حقيقي لها

يجمع مجموعة « تحت المظلة » نسيج فكري متلاحم ، يجعلهـــا ، رغم انفصام عناصرها عن بعضها ، وحدة عضوية متماسكة . لابد هنا من إجراء شيء من التجزيء الأكاديمي لقصص الكتاب عن مسرحياته . يجمع قصص الكتاب جوهر واحد هو : « إدانة السلبية والتخاذل في عالم دموي يسوده الخوف والجريمة » . هذا المفهوم ينطلق من أساس قديم نسبياً لدى محفوظ هو : حتمية الاختيار واتخاذ موقف ، لأن عدم الاختيار في حد ذاته اختيار لموقف الجبن والضعف والتقاعس .

انطوحت أجسادهم تحت المظلة ، أما الرؤوس فتوسدت الرصيف تحت المطر

في قصة « تحت المظلة » ـ أحب قصص الكتاب الى قلب محفوظ كما قال ـ نجد أنفسنا في عالم متفجر يسوده الرعب والملاحقة والموت والجنس والرقص الجنوني .. عالم يختلط فيه البدو بالخواجات ، والرقص العاري بالجريمة ، والحب بالقبر ، والحقيقة بالوهم . نحن في شارع . المطر يتساقط رذاذاً وجماعة قد احتمت بمظلة تراقب رجالاً يطاردون لصـــاً .. يقبضون عليه ، ينهالون عليه بالضرب . الشرطي الواقف لا يكترث للأمر بل يدخن لفافة . الرجال يتبادلون كلمات ثم يتناقشون . اللص يخطب . سيارتان تتصادمان .. تلتهبان .. جثث محترقة . أنين

ضحايا .. جماعة تحت المظلة تتساءل ولا تتدخل .. جريح يزحف ملطخاً بالدم .. اللص عار كما ولدته أمه يبدأ الرقص في الساحة يرافقه تصفيق مطارديه بإيقاع مناسب ..شاب وفتاة يلتقيان في الشارع .. يخلعان ملابسهما ثم يمارسان الحب علانية ، ورأس المرأة مستلق على جثة قتيل . بدو من الجنوب ، وخواجات من الشمال يعسكرون . عمال بناء يشيدون قبراً رائعاً ، وسريراً مزيناً بالورود ، ثم ينقلون الجثث المشوهة الى السرير ، والعاشقين الى القبر حيث يهاون عليها التراب . جماعة تحت المظلة يتساءلون ولا يتحركون . ويشتبك البدو بالخواجات بمعارك عنيفة وتسيل دماء ، ويرقص البعض عرايا ، ويمارس آخرون الحب تحت المطر . يتدخل رجل مجهول تخاله الجماعة مخرجاً في المشهد ، وما يلبث رجال رسميون أن يلاحقونه فيفر هارباً . تنادي جماعة تحت المظلة الشرطي الذي يسمعهم أخيراً ، فاذا به يتهمهم بالتآمر ، يصوب اليهم بندقيته ويطلق النار فيسقطون صرعى . شارع نجيب محفوظ إذن هو العالم المعاصر بكل تناقضاته وصراعه ودمويته . . عالم دموي صاخب يضيع فيه المعنى ، وتزهق العدالة ، وهو جزء من العالم تتجسد عليه جميع الأزمات المحلية في قالب رمزي شديد التكثيف . كل شيء يجري في الشارع تحت المطر المنهمر ، ومجموعة الناس المحتمين بالمظلة يرون ولا يتحركون :

– كأننا في حلم !
– حلم مخيف ويحسن بنا ان نذهب ..
– بل علينا ان ننتظر ؟
– ماذا ننتظر ؟
– النهاية السعيدة .
– السعيدة ؟
– وإلا فبشر الخروج بكارثة !

لأنهم مازالوا عاجزين عن تفسير ما يجري أمامهم .. أو عن ادراك كنه العالم المتحرك . هل هو فيلم يقف وراءه مخرج بارع أم أن ما يحدث حقيقة مرعبة؟ ألا يذكرنا حوارهم هنا بحوار استراغون وفلاديمير في مسرحية بيكيت « في انتظار غودوت » ؟

ليس المهم في « تحت المظلة » تحديد دلالات الرموز واقعياً واحدة تلو الأخرى قدر ماهو مهم نقل الاحساس بأنه ليست هناك في الحياة من مظلة، وأننا جميعاً مسؤولون .. مسؤولون عن الاغلال والعنف والغزو والصراع الطبقي والموت ، فكلها عوامل تغمرنا . الدمار يلحق الجميع ، ولابد من اتخاذ موقف ، لابد من الايجابية .. ومن التعرض للمطر . هنـاك غزو القرية المدينة والغزو الأوربي لها ، وبين الاثنين ينشأ صراع عنيف . صراع سيادة وبقاء في مواجهة الارهاب والخوف والجنس والرقص والموت . تبقى السلبية مسيطرة على بعضهم ، فيحرصون كالنعامة على إخفاء رؤوسهم في الرمال . كأن « تحت المظلة » تقول اذا كانت رؤوسكم ستتوسد الرصيف تحت المطر في النهاية ، فلماذا تحرصون على إخفائها ؟ ولمـاذا لا تعرضونها سلفاً للحياة . . وتتحدون العالم ؟ إن القصة إدانة للسلبية .

شيئان يستحقان التحليل في القصة : أولهما كلمة المطر التي تتردد كاللازمة الموسيقية رمزاً للحياة ،بعد أن كان المطر رمزاً للخصب أو للطبيعة أو للتطهير . بهذا يصبح عدم التعرض للمطر جريمة الانسان المعاصر ، لأن في تجنبه ابتعاداً عن الطبيعة ، وبالتالي عن انسانيته الحق . أما الشيء الآخر فهو دور الشرطي . هل أطلق عليهم النار لأنهم مدانون ، ولأنه يمثل العدالة والقانون ؟ أم لأنه امتداد لدموية العالم .. واصبع اتهام يوجه اليهم من قلب هذا العالم فيجرهم الى فضائه رغماً عن أنوفهم

لا جزءاً من الصراع وإنما ضحايا ؟ إن الشرطي هو آخر صدمة يوجهها محفوظ الى صدر منتظري النهاية السعيدة ، وما أكثرهم ! فالشرطي واقف تحت المطر .. أي أنه جزء من العالم المتدهور الذي يرسمه نجيب محفوظ ، لكنه لم يتدخل في كل ما جرى ، فكان سلبياً مثلهم . لكن العقاب لم ينل الشرطي بل نال منتظري حلم عدالته ، فالشرطي يحمل بندقيته وكثيراً من الاسئلة :

— كل من كان في الخطة استغل سيارته الا أنتم فما شأنكم ؟
— انظر الى هذا الرأس الآدمي !

لكن ذلك لا يهم الشرطي كثيراً .. فرؤوس كثيرة قد سقطت وهو عنها لاه :

— ماذا وراء اجتماعكم هنا ؟
— لا يعرف أحدنا الآخر !
كذبة لم تعد تجدي ...

الشرطي الذي عجز عن العمل وقت العمل فلم يتدخل في وقت وجب عليه فيه التدخل، بدد الآن اصبع ابهامه التعسفي اليهم . وكأن نجيب محفوظ يريد أن يقول : لقد استحقوا العقاب لأنهم انتظروا ان تدخل الشرطي وهم الجماعة . كانت الطريق هي أن يمارسوا الحياة فعلاً : حياة المطاردة والصراع والحب تحت المطر . إن الشرطي قد قتلهم في الخاتمة لأنهم لم يمارسوا دور الشرطي في احقاق العدل ، بل اكتفوا بالتفرج . « تحت المظلة » قصة رجال ينتظرون (غودوت السلطة) أن ينظم عالمهم الصاخب الدموي ، فما لقوا من السلطة سوى الصمت والتجاهل ، وما لبثت أن مدت اصبع ابهام اليهم فجأة تتبعها بندقية ، فسقطوا جثثاً هامدة في عالم مدمر تحت المطر .

انه مسؤول عن الاستغاثة الضائعة ، لامفر

قصة « النوم » تدور حول الفكرة ذاتها بشكل أكثر توضيحاً وواقعية .. بطلها مدرس لغة عربية ، يقضي لياليه في جلسات لتحضير الأرواح ، وينسى عالمه .. هذا الرجل يستسلم ذات صباح لبرهة نوم في مقهى ، واذا بجريمة تقع على بعد أمتار منه : شاب ذبح فتاة أمام عينيه دون ان يرى او يتدخل ، واذا بالفتاة جارة له متيمة به ضاعت في جريمة غيرة حمقاء بعد أن انتظرت طويلاً نتيجة تردده وصمته وسلبيته . لقد نادته عدة مرات وهي تهرب من الطعنة التي تلاحقها دون جدوى .. فقد كان صاحبنامستغرقاً في النوم . تسري الشائعات من حوله مزعجة مقلقة ، لكنه يعود الى عالم كل يوم .. عالم النوم . القصة بالطبع ادانة أخرى للعجز ، والانطواء على النفس ، وخنق المشاعر بحبال القلق . بطلنا غاص في عالم الغيب والأرواح حتى نسي عالمه المليء بالحب والجريمة والعواطف المحترقة والذبيحة على أرصفة المدينة . إن النوم في قصة نجيب محفوظ لم يدم برهة قصيرة فقط ، لأن الرجل كان يغط منذ البداية في نوم عميق جبان طويل الأمد .

ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة

أما قصة « الظلام » فتمتاز بجو ميتافيزيقي عجيب تسوده العتمة والرؤوس المسطولة بفعل الحشيش . المكان غرفة معزولة بين الحقول .. غرفة تدور في ظلمتها جوزة وحيدة يحركها معلم يعرف الجالسين ولا يعرفونه ، ويراهم ولا يرونه . وذات ليلة ، وسحب الدخان الشبحية تتصاعد يختفي المعلم الشيطاني وتختفي معه علب الثقاب وأوراقهم الشخصية ، ويجدون أنفسهم أسرى سجن مظلم مسمر البـــاب والنوافذ ، فيدقون الأبواب ويصرخون حتى ينتابهم اليأس فيقعدون ، واذا بالمعلم يظهر بينهم من جديد ليخبرهم أنه لم يغادر مكانه

قيد شعرة ، وأنه جردهم فقط من الثقاب ومن أوراقهم ، وأنهم لم يتحركوا أدنى حركة وإنما تخيلوا الفعل . ثم يباغتهم بأنه اعطاهم مزيجاً من الحشيش سيفقدهم منذ الغد ذاكرتهم ، ويضيع عليهم ماضيهم أشتاتاً مجهولة :

– هل جننت يارجل ؟

– لكن ، ماذا جنيتم من عقلي ؟ فلتجربوا جنوني، وسوف أخدر نفسي بابتكاري العجيب ، ومن حسن الحظ أنني لاأملك بطاقة من الأصل ، فلنشكر الظلام والصمت والملل أياديها ..

– ياجنون يا مخرف ..

– ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة ، سوف ألحق بكم، أعدكم بذلك . انطرحوا جثثاً فوق الشلت، فغداً سيستقبلكم الخلاء أجساداً فتية مبللة بندى الحقول .

من هو المعلم ؟ أهو الله أو القدر ؟ أم أنه يمثل السلطة ؟ فلنقل انه قدرة ما قوية وقاسية يشعرون بها دون أن يروها أو يميزون هويتها . ذلك المعلم لم يفعل شيئاً سوى أنه جردهم من شخصياتهم ومن الضياء التي يمكن أن تتيح لهم فرصة التعارف ، فالتلاقي ، فالتعاضد . لقد حرمهم من العلاقة الإنسانية ، وجللهم بالعمى الأسود .

ليس تحديد هوية المعلم مهماً ، بقدر ما هو مهم إدراك تفاهة الوضع لسجناء الغرفة الاختياريين . إن الظلام ليس في الغرفة ، بل في اللجوء اليها والاستسلام الخانع لها ولشحطات المخدرات . وما ظلام المكان إلا انعكاس لظلام النفوس وبؤس واقعها . ان الأشخاص المجتمعين يفقدون في تلك الساعات كل علاقة انسانية فتصبح الجوزة رابطتهم الوحيدة ، وكل مايهمهم هو الهرب من العالم ونسيانه . لقد بلغ العجز بهم أنهم يتخيلون الحركة وهم في سكون ، فيصبحون عبيد ظلمة المعلم الجبار . القصة تريد أن تقول أنه من الممكن أن تطول

الظلمة لمن قبلها برهة ، وأن من يلفه وجود بلا ارتباط حقيقي أو معنى يمكن أن يختفي فجأة دون أن يخلف أثراً . انه إذن اسقاط الرمز على واقع ، وما غرفة المعلم الغامضة ، إلا العالم نفسه أو صورة عنه ، وما الذين في داخلها إلا الناس الذين فقدوا القدرة على الاتصال بالآخرين ، فسقطوا اسرى الظلام . الأمل الوحيد ، كما أراه من خلال القصة ، يمكن أن يبدأ منذ انتهاء عزلتهم وتقوقعهم الذاتي ، وزوال خيالاتهم المريضة تحت تأثير المخدر . فربما يعاد عندئذ خلقهم من جديد .. بشراً يفتشون عن هوية .. وجوداً يسبق الجوهر ويسعى الى خلقه ومن ثم تبرير الوجود التلقائي . الوسيلة هي أن يستعيدوا براءتهم عندما يستعيدوا الاحساس، فإذا بهم أجساد عارية مبللة بندى الحقول .

من يهدم مدينة خير ممن يحافظ على جدار قديم

« الوجه الآخر » قصة عن أخوين أحدهما مجرم خطير (رمضان) ، والآخر ضابط أمن مسؤول (عثمان) . ويلتقي الاثنان في مدينة لقاء رهيباً لأنه لاحياة لأحدهما بوجود الآخر كما يبدو : يلتقي التمرد ضد النظام ، والشر ضد الخير . وبعد صراع يُقتل الاخ الخارج عن القانون ويسود النظام . لكن راوي القصة وصديق الاخوين المتنازعين يتمرد فجأة على النظام ، ويشعر بالسأم من قوالبه ، وتنتابه رغبة جارفة في تدمير العالم ، فيتحول بين ليلة وضحاها الى فنان مريض الصدر أعرج المشية ، تختفي وراء ستارة بيته امرأة عارية أتى بها كنموذج للرسم . إن صرخة احتجاجه تقول : « لقد أضعت أيامي في صحبة العقلاء ، سألهو بالاشياء القيمة ، سأنصب شراعي في مهب العاصفة ، سأسحق مقتنياتي وأقذف بها في الرياح ، سأعرض عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفني الدوار ، فليكونوا سعداء نافعين ولأكن مجنوناً مخرباً وليتقبلني الشيطان . وتسألني عن

القواعد والتقاليد فأقول لك أنه لن يعرقلني شيء ، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شيء » إن الوجه الآخر هو وجه انساني أيضاً : هو وجه الانسان نفسه بمزيج من الخير والشر ، من الفوضى والنظام . ولعل نجيب محفوظ يريد أن يقول أن الحياة تحتوي النقيضين ، وأن فقدان أحدهما يوازي فقدان الآخر لأنه يعني غياب عنصر أساسي من عناصر الوجود . ان المثال الذي يقدمه لنا عثمان حامي النظام يهتز منذ المواجهة الأولى مع رمضان الذي يقبل كل مسؤوليات تمرده على القانون ، هذا المثال يتحطم في عين الصديق ، فشبح من الأشباح قال له : « إن رمضان انطلق من قاعدة لا يمكن الدفاع عنها ولكنه اتبع أسلوباً رائعاً ، أما نحن ـ أنا وأنت ـ فلنا قاعدة لايمكن الهجوم عليها ولكننا نتبع أسلوباً ممجاً ميتاً » . إن منطق نجيب محفوظ الوجودي هنا يقول ثانية : ليس الشيء مهماً بحد ذاته ، بقدر ماهي مهمة الطريق التي نسلكها للوصول اليه .

عندك الفارس الهام ، وست الكل زينة البنات

أما قصة « الحاوي خطف الطبق » فقصة صبي صغير وقرش وبائع فول في صباح ما . الصبي ساذج يسهل التلاعب به ، وبائع الفول غبي او مخادع ، والأم في البيت تنتظر الافطار . الصبي يشرد مع ألعاب الحاوي فيضيع الطبق بعد ما أضاع القرش ، ثم يقضي دقائق يتبادل فيها القبلات مع فتاة في مثل سنه تحت سلم أثري . الجوع ينهك الصبي ، وبائع الفول قد باع فوله وما بقيت سوى الحلة الفارغة ، والصبي قد ضاع عن أمه . وأخيراً يلمح من مخبأ جريمة قتل ، فيفر فزعاً بين الحواري الضيقة وأسراب الشحاذين ، مشبعاً بالشك والتردد والخوف .

القصة رغم بساطتها مليئة بالايحاء ، وبأصالة الصورة الشعبية ، وفيها يتجلى مثال واضح على تأثير الرؤية السينمائية ، حتى ليخيل للمرء أنها فيلم من أفلام الموجة

الجديدة . يظل من الصعب وصف هـــذا النوع من الأدب بالرمزية ، لأنه من الصعب أن نحدد من يرمز لمن ، وماذا لماذا ؟ انها قصة تعتمد على نقل الاحساس الفني الى حدس القارىء مباشرة .

ماذا لو نظرنا إلى القصة مرة أخرى لنرى ما تخفيه ظلالها : نحن أمـــام مخلوق طفولي لا يعرف كثيراً ، ولا يدرك خداع العالم والبشر . إنه مخلوق يسهل خداعه ، ثم يسهل إلهاؤه عن مهمته التي يستمد منها الحياةوهي تأمين الغذاء. إن الحاوي بائع المعجزات هو الذي يسلبه لبه بالحكايات الخرافية عن الفارس الهمام وست البنات . الفارس الهمام فارس احلام ، وست البنات صبية أهملت أمها التي تعاني آلام المخاض لتتفرج على ألاعيب الحاوي ولتتبادل القبل مع الصبي خلسة تحت السلم . وبعد فوات الأوان يستيقظ الصبي ليكتشف أن كل شيء قد راح : الأم غابت ، والجوع ينهشه ، وجريمة بواها بأم عينيه فيهرب مذعوراً في أماكن غامضة :

« أدركت بخوف أنني ضللت الطريق ، وأن متاعب لا حصر لها تتربص بي حتى أهتدي الى سبيلي . هل ألجأ إلى أحد المارة لأسترشد به ؟ ولكن ما العمل لو ساقني الحظ الى رجل كبياع الفول أو متشرد الخرابة ؟ هل تقع معجزة فأرى أمي مقبلة فأهرع اليها بكل قلبي ؟ هل أجرب السير وحدي فأتخبط حتى أعثر على أثر استدل به على طريقي؟ وقلت إن علي أن أحزم أمري ، بسرعة ودون تردد ، فقد أخذ النهار يولي ، وعما قليل سيهبط الظلام من مجاهله » .

إنني أهبط في هوة ثم يرفعني شيء مجهول إلى أعلى

أما قصة «ثلاثة أيام في اليمن» فتقوم على مقارنة – متهكمة بعض الشيء – بين جندي وأديب . الجندي ذاهب مع فرقة المظلات ليحارب من أجل الثورة والتحرر من أدران التخلف والملكية في البلد الشقيق ، والاديب ذاهب مع شلة

عن المثقفين السفسطائيين الذين يجيدون الحديث عن بسكال وعن المرأة ويرتجفون هلعاً أمام طلقة الرصاص . القصة تشبه المذكرات ، فيها سرعة وعفوية ، وذكاء في توزيع الايقاع بين الاديب والجندي . وتصل سخرية محفوظ هنا إلى النفس بصدق وسرعة :

« – الحياة كلها كفاح وليس الجندي وحده الذي يحارب ..

– ولكن ..

– سأقص عليك قصة حب عانيتها زمناً ، بطلتها فتاة متمردة وحشية ، وسوف تقتنع بأن ما كان بيني وبينها لا يختلف عن القتال في شيء . »

نعم ، ربما كان ذلك قتالاً أو تبريراً للجبن ، ولكنه على أية حال لاينتهي بالموت . أمام الموقف الواضح بقاتل الجندي دفاعاً عن الحرية ، ويثرثر الأديب حول الموضوع كثيراً دون فائدة . إن كلمات الأديب الأخيرة الموجهة الى الجندي ماهي إلى كلمات محفوظ وصوته هو ، في صيحة حب ووفاء .

نقد القصص

هناك تباين واضح في أسلوب القصص الست رغم التزام نجيب محفوظ بفكرة واحدة ، كانت رؤياه في هذه المجموعة نتاجاً أو باعثاً عليها . هذا التباين في الاسلوب ينعكس بالتالي على مستوى القصص ، فبينما تتماسك « تحت المظلة » و « الظلام » و « الحاوي خطف الطبق » في رؤيا معاصرة ومليئة بالصور تفصح عن احساس مكبوت بالنكسة فتعبر عنه دون زعيق أو مباشرة أو ندب ، فإن قصة « النوم » تنحو منحى التبسيط والتوضيح فتبسط الحادثة الواقعية على مغزى اكثر شمولاً دون أن تملك شيئاً متفرداً ، وتنتهي قصة « الوجه الآخر » بتمرد مفاجيء يحول الحياة الى فكر مجرد لأن هذا التحول غير مقنع في حد

ذاته ومفاجيء ،وتسير قصة « ثلاثة أيام في اليمن » على نسق المذكرات،وهي بذلك تثير الاعجاب بأسلوبها اللغوي الممتاز وليس بتكنيكها الفني .

هناك اتجاه بدأ يتخذ سيادة نخيفة على الاتجاهات الأدبية الأخرى لدينا ، وهو الأدب الرمزي المبطن الذي يخفي وراءه دائماً دلالات سياسية ويحتمل عديداً من التفسيرات والتأويلات . ويحق لنا أن نتساءل : ألا يشكل هذا الاتجاه المجازي Allegoricl خطراً على تقدم الرواية الواقعية والمسرح الدرامي؟ ألا يمكن أن يقودنا إلى درب مسدودة ؟ ألا يحبسنا في سجن الذاتية والتقوقع ؟ الغريب في الأمر أن هذا الأسلوب سائد بالنسبة لجيل الأدباء المتمرسين والكتاب الناشئين . إذن ، فالقضية ليست في تبنيه التلقائي أو في رفضه ، بل في حسن وسوء استخدامه.

يلك [هذا الاتجـــــاه لدى نجيب محفوظ بذوراً قديمة ، وما هذه المرحلة — « أولاد حارتنا » و «خمارة القط الأسود» و «تحت المظلة » — إلا تتويجاً لنتاج ثري من القصة التاريخية « عبث الأقدار » والقصة النفسية «السراب » والقصة الاجتماعية «الثلاثية » والقصة الفلسفية « الشحاذ » ، وهو نتاج يعتبر رحلة شديدة السرعة في تاريخ الرواية منذ والتر سكوت حتى ناتالي ساروت . واستخدام محفوظ للطريقة المجازية Allegorical method تدل على أنه أكثر وعياً وتجربة ، فقد زاوجها ببلاغة مبسطة انسيابية في قصصه القصيرة ، وبلهجة ملحمية في «أولاد حارتنا» ، مما جعلها مستساغة ، كما أنه أشبع الدلالات السياسية والاجتماعية المحلية ببعد انساني نزهها عن الدعاية .

مسرح نجيب محفوظ

يقول محفوظ : « إن الشكل الأدبي المناسب لأزمة العصر هو المسرح» باعتبار أن المسرح هو الشكل الفني الذي يرتكز أساساً على الجدل والحوار

وصراع الأفكار . » ومسرح نجيب محفوظ يمتلك خصائص قصصه القصيرة تقريباً.
إنه مسرح يفتقد الدرامية ، مسرح تعوزه الشخصية وفي نفس الوقت الملحمية .
ربما كان فنياً أقرب إلى « مسرح اللامعقول » ، لكنه ليس مسرحاً لامعقولاً ، بل
مسرح ملتزم . مسرح نجيب محفوظ ليس المسرح، بل نمط مسرحي قائم وجيد :
نمط يتسم بالجدة والمغامرة والتجريب ، مسرح يقوم عادة في أركان الشوارع
وفي الساحات العامة والحدائق والأندية الصغيرة في بلدان أوربا وأمريكا .
مسرح محفوظ مسرح يقوم على الكلمة أكثر مما يقوم على اتساع حجم الامكانيات
المسرحية ، وهو بهذا انطلاقة من أرض بكر بالنسبة للمسرح العربي ، إذ حتى
العام الماضي (عندما بدأ مسرح المائة كرسي عمله) كان هذا النوع ظاهرة
مفقودة . الشخصيات في هذا المسرح لاتملك خصائص ذاتية ، لكنها في الوقت
نفسه ليست تجريدية تماماً . إنها بين بين : فالمرأة نمط من النساء ، والرجال نمط
من الرجال ، لكنها ليست كل النساء أو كل الرجال . ومحفوظ يقول في حوار
أجري معه على صفحات (مجلة الكاتب) : « أما حين تتحول الحياة إلى مشكلة ،
لايصبح الإنسان شخصاً معيناً ، بل مجرد إنسان ليس هو شخص بالذات يتميز
عن سائر الناس بتفاصيله وذاتيته . » وأغلب مسرحيات المجموعة مليئة ،
كقصصه ، بإحساس سياسي يحركها ويدفعها : احساس استفزازي قاتم ،
يصعب ادراك كنهه بدقة ، ومن السهل أن ينقلك إلى نوع من التساؤل القلق
والشعور بالوضع الانساني المتأزم ، أي نفس المرحلة الشعورية التي يصل إليها أي
منا وهو يفكر بالمأساة القومية الناتجة عن الهزيمة . إنها مسرحيات محكمة اللغة ،
متماسكة الشكل ، تعتمد على رؤيا فكرية أكثر منها احياتية أو واقعية ، كما ذكرنا
من قبل . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نصنف مسرحية « يميت ويحيي » كمعالجة

مباشرة لموضوع النكسة ، ومسرحية «التركة» كرصد للانتقال من عصر سيطرة الدين إلى عصر سيطرة العالم مرورا بالمغامرة ، ومسرحيات «مشروع للمناقشة» و«النجاة» و«المهمة» كمسرحيات انسانية ظاهراً تحمل الكثير من الحس السياسي والاجتماعي والنقدي الشديد حول الحياة ، والفن ، والشعور بالذنب ، والاحساس بالمطاردة ، والموت ، وترتفع هذه الأفكار إلى مستوى الفلسفة .

ينابيع الحياة الحق مهددة بالجفاف ، أشواق القلب الخالدة يساومها الضياع ، سحقاً للوحشة التي تذبل فيها معـــاني الأشياء ، إني ذاهب .

مسرحية «يميت ويحيي» مسرحية تجريدية تعتمد على مناقشة أزمتنا السياسية الراهنة أساساً لها ، وهي بذلك أكثر المسرحيات الخمس مباشرة . هناك صراعان : الأول صراع بين الفتى وعدو مجهول ، أما الثاني فصراع بين الفتى الذي يقول : «سحقاً للخمول في حدائق الورد» والفتاة التي تقول : «ياحسرتاه على حكمة الأيام الناعمـــة» - الفتاة تبحث عن الحب والسعادة ، تغمرها رغبة استسلامية ، وقبول بالحياة السهلة .. والفتى يمثل الرغبة المتدفقة لتجاوز الهزيمـة ، والصبوة المستمرة للانتصار : «سأصون كرامتي حتى الموت .» . ليس هناك على المسرح سوى نخلة يتيمة وساقية (لعلها ترمزان الى قنـاة السويس) وفي خلفية المسرح هناك قبور الأسلاف وقـــد جللها الظلام والصمت . وتتدخل شخصيات رمزية أخرى واحدة تلو الثانية في مجرى الأحـداث : الطبيب يشخص للفتى أعراض مرضه ، الذي هو وباء وفـد من الخارج واستفحل في البيئات الراقية . أعراض الوباء كثيرة أهمها : التردد ، والتفاخر ، والعجز عن مراجهة الحقيقة ، والمبالغة ، والتهرب ، والتهجم ، والغوغائية ، والهذيان ، وكلهـــا صفات تتسم بها المجتمعات المتخلفة ، وإن جميـع الناس مصابون بها . أما الدواء العجيب فهو

أن يستخدم الانسان حواسه معكوسة ، وأن يتركها مفتوحة كأقصى مايكون كي لا يخدع بالمظاهر ، وكي يشفى من أعراض الوباء الخبيث . ثم يظهر العملاق (وهو يمثل القوى الامبريالية الكبرى) فيحاول فرض معونته للفتى في صراعه الصعب مقابل نيله حقوقاً ثابتة هي ثمن ما يريد العدو نفسه . وما يلبث العملاق حين يكتشف هوية العدو أن يرفض التدخل لأن ذاك قريب له عزيز عليه . إنه ينضم اليه عندما يرفض الفتى قبول السلام الاستسلامي رغم توسلات الفتـــاة . أما الشخصية الثالثة فشخصية رمزية غريبة : إنها الشحاذ الذي يمثل الطبقة الكادحة التي تعاني خيبة أمل مريرة في المسرحية . الشحاذ تمرد على الملجأ القديم ، لكن شيئاً كثيراً لم يتغير في حياتـه ، وهو لا يستطيع أن يتمرد على الملجأ الجديد لأن صاحبه رجل عادل أمين رحيم . لهذا لا يجد بداً من الهرب . في النهاية يقف الفتى وحيداً صامـداً في عزلته بعد أن رفض منطق الفتاة .. يقف مستنداً إلى عزمه الأكيد على النصر ليصارع العدو والعملاق في وقت واحد . إنه يتحرك في تصميم مع أشباح الأسلاف الذين هبوا من قبورهم لخوض المعركة المحتومة ونحو الأمل الخالب بلذة الانتصار .

رجل وامرأة يلتقيان في غابة . في الغابـة أخطار لا حصر لها . إنها يبحثان عن مأوى يحميها . يجدان مأوى على درجـــة من الأمان . يحصنانه ضد أهوال لا حصر لها ولا عد . يمضيان أوقات الراحـــة في عناق حار . وفي لحظة من لحظات العناق الحار يسقطان جثتين هامدتين

مسرحيات محفوظ الثلاث : « النجاة » و « مشروع المناقشة » و « المهمة » تدور حول حكاية جوهرها واحدهي التي رواها المؤلف في « مشروع المناقشة » : إنها البحث عن الحب في عالم دموي خطر .

مشروع للمناقشة: مخرج ومؤلف وممثل وممثلة وناقد مجتمعون في غرفة لتبادل النقاش حول عمل الموسم القادم. المخرج يطالب بحريته، الممثل يبحث عن دور بطولي، الممثلة تنتظر دور حب خالد، الناقد يريد توازناً ووضوحاً، أما المؤلف فيبدو أنه الضحية إذ يحاول اقناعهم بأن صورة الحياة تغيرت، وأن احلام الحب والبطولة قد انتهت، وأن المأساة تنبع لا من صراع معين بل من قوة قدرية عبثية غامضة. وسرعان ما نكتشف أن حديث الفن هو حديث عن الحياة: رجل وامرأة، غابة، فخطر، فمأوى، فحب ثم موت. لماذا؟ من يدري!! إن المسرحية تدور حول صراع البقاء.. البقاء مع الحب، والوقاية في غابة مليئة بالأخطار.

النجاة: في «النجاة» تعاد الحكاية نفسها بإطار معاصر. رجل وامرأة يأويان إلى شقة تهددها الأخطار. المرأة هاربة من جريمة مجهولة والرجل الذي تلتجىء إلى شقته لا يعرف عنها شيئاً، ومع ذلك يحميها. ويحول بينهما كثير من الأسئلة القلقة والشك، لكنهما يحصنان مأواهما من تطفل الغرباء، ويتجرعان الشراب والحب في محاولة لنسيان الخطر الداهم المحيط بها كالماء حول جزيرة. إن حبها الغامض اليائس غير المعقول، هو أكثر الأمور انسانية في عالم قائم على العنف. المرأة تعده أن تكون له حتى الموت، وفعلاً تتجرع السم من انبوبة دون أن يشعر وتسقط جثة هامدة. وعندما يقتحم رجال الشرطة الشقة، يتبادلون فجأة اطلاق النار من النوافذ مع عدو في الطريق. ويزحف الرجل نحو المرأة، يحملها بين ذراعيه، ويتجه بها نحو بر الأمان، وهو يحلم بالنجاة والسعادة دون أن يدري أن ما يحمل ليس إلا جثة.

المسرحية مرة أخرى انعكاس لاحساس سياسي متأزم .. إحساس يرتفع إلى مستوى الفلسفة ، ويتخذ من الفن صوراً له . الإنسان يحيا في كهف مهدد بالأخطار ، يبحث عن النجاة .. ولا نجاة . الخطر داخلي – خارجي بآن واحد : خطر يتمثل في جريمة المرأة المجهولة التي تملأ الحياة بالقلق والتهديد والشعور بالذنب ، وخطر يتمثل في عدو مجهول يحتل منطقة مجاورة ، ويتبادل اطلاق النار مع رجال الأمن المتمركزين في شقة الرجل . الإنسان إذن في معركة مستمرة ، مطارد بالرغبة المؤرقة في الحب والسعادة ، مطارد بالقلق وبالموت ، وربما هو أقسى من الموت : الحلم الزائف بالنجاة .

المهمة : في مسرحية « المهمة » تتضح معالم المطاردة . شاب ينتظر فتاته في منطقة صحراوية : إنه يشعر بأن رجلاً يلاحقه ، فالرجل كان موجوداً بالمصادفة في كل مكان زاره الفتى خلال النهار . وتأتي الفتاة إلى موعدها الغرامي ، ويجلس الاثنان يتبادلان القبلات في ظل قلق متزايد من وجود الرجل الغريب الذي يبدو انه يجد السعادة في وجودهما . القلق يغدو خوفاً . الفتاة تنسحب . الرجل والشاب يخوضان نقاشاً متوتراً حول المصائب التي جرها وجود الآخر على الشاب وعلى مدى معقولية ذلك ، وبالتالي طبعاً استحالة قبول التعايش الإنساني المتلاصق . الرجل يؤكد أنه لا يبحث إلا عن لحظة تعارف . وفجأة يقع الشاب أرضاً بسبب ألم حاد في ركبته ، فيطلب معونة الرجل وبقاءه ، لكن ذاك يريد أن يغادره الآن دون اكتراث لما ألم به تاركاً إياه وحيداً في الخلاء والظلمة والصمت ، فهو ذاهب ليشهد منظر غروب الشمس . ومن بين حجب الظلام الكثيف يظهر رجلان في ثياب حمراء يحملان مشعلين ، وآخرين عن كثب في السواد يحمل كل منهما سوطاً وحبلاً معقوداً ، يقترب الآخران

من الفتى المستغرق في النوم في وحشة الخلاء فيقيدانه وهو يفتح عينيه فزعاً . ويحقق الرجلان معه بسبب ذنب مجهول : « إن أردت الرحمة قتلناك بلا تحقيق ، وإن أردت العدل قتلناك بعد تحقيق ، وإن أردت الحرية فاقتل نفسك بالوسيلة التي تفضلها . » أي اختيار ذلك الاختيار ونتيجته المحتومة هي الموت ! هل هم زبانية الجحيم أتوا يقاضونه الحساب ؟ إن ذنب الشاب ، كما يقولون ، هو أنه لم ينفذ المهمة التي أوكلت إليه . أهي مهمة تبرير وجوده في هذا الكون ؟ إنه يعمل مدرساً للتاريخ ، ويتحدث كل يوم عما فعله الانسان القديم الذي اكتشف الزراعة ، وصنع التقويم ، وبنى الأهرام ، وهزم وانهزم . لكن تجارب التاريخ ودلالاته العميقة غابت عن الشاب ، فأصبح مجرد كلام بلا مغزى . جل همه كان الحب والسعادة ، فكان أن ضاع جوهر الحياة .. ضاع ذلك المزيج العجيب بين الدمعة والابتسامة ، بين الجد واللهو . إن ملاكي الموت يجلدانه بالسياط ، أما حامل المشعل فيحمله بيننا بنار الآخر . « تذكر أن الطفل يبكي حين تنحيه أمه عن ثديها الأيمن ، ولكنه يجد في اللحظة التالية سلواه في ثديها الأيسر . » . ما الموت إلا الحل الوحيد لمن خاب في تحقيق مهمة الوجود الصعبة . إن الحياة والموت عنصران لجوهر واحد . مسرحية « المهمة » عمل كابوسي الرؤيا ، تختلط فيه روح المعاصرة والقلق بمسرحيات الوعظ الأخلاقية السائدة في العصور الوسطى . المسرحية تتضمن فكرة سارتر « الجحيم هو الآخرون » ، لكن محفوظ يتجاوز جلسة المفكر الوجودي السرية إلى تحديد أكثر اجتماعية وتحديداً للجحيم الذي يشكله الآخرون . إن العلاقة الإنسانية علاقة متناقضة في حد ذاتها ، فهي تحمل السلب والإيجاب معاً . الإنسان يرفض وجود الآخر مادام يحد من حريته ، ويلتصق بظله بحثاً عن التواصل الاجتماعي ، لكنه في الوقت نفسه يحتاج إليه .

إن محفوظ ، كما قلنا ، يتجاوز مفهوم سارتر كما تجاوزه هو نفسه بعد «جلسة سرية» ، لأن صراع الإنسان مع الآخر صراع يفتت الجهد الإنساني ويجعل مهمة الإنسان في هذا الكون مستحيلة . إن هذه المسرحية الصغيرة في الوقت الذي تعكس فيه رؤيا فلسفية شمولية ، تعكس احساساً ملتزماً ورغبة محلية في الانفكاك من سور الخوف الذي يحاصر وجودنا فيفزعه عن مهمته ويقيد حريتنا باحساس مقيت .

الحياة الحق نقيض الراحـــة ، والرجوع إلى الطوافة تفكير مضحك ، لعله ينقصنا شيء ، ولكن لا بد من مواصـــلة حياتنا

مسرحية «التركة» المشبقة لها الطابع نفسه : فتى وفتاة يدخلان بيت الشيخ التقي والد الفتى وصاحب المعجزات طلباً لتركة مجهولة تحقق أحلامها في عالم الثراء . الفتى المغامر يحلم بأن يصبح قواداً عالمياً ، والفتاة التي تلعب دور زوجته المصون – وهي امرأة سوء – تحلم بأن تصير نجمة كباريه عظيم . ينتظر الاثنان في البيت القديم ، وما يلبث صبي أن يظهر فيرشدهما إلى مجموعة من الكتب ومبلغ نقدي كبير ، لكنه يوصيهما بألا يمسا المال قبل إكمال معرفتهما عن طريق الكتب . يتجاهلان النصيحة بالطبع ، فيغادرهما وفي عينيه دمعة مكسوفة حزينة . ينهمكان في عد النقود وإذا برجل ضخم الجثة يقتحم عليهما الدار متقمصاً دور مخبر ، ويعلمهما بأنه قد عثر على الشيخ قتيلاً وأن الفتى متهم بقتله . يرجوه الفتى ويحاول اقناعه بشتى السبل ببطلان التهمة دون فائدة ، فيعرض عليـــه نقوداً ، فيطلب المزيد ، فيتفقان . لكن الفتى يحاول طعنه بسكين واستخلاص المال ، فاذا بالرجل يتغلب عليه ، ويقيده مع الفتاة ويهرب بالمبلغ . ويعاني الاثنان في البيت الغريب الموحش شتى ضروب التساؤلات والقلق ، ويفكران في امكانية كون البيت مسكوناً

بأشباح الأسلاف وأصحاب الكرامات . ويطل الصبي في منتصف الليل ، لكنه يرفض أن ينقذهما لأنهما خالفا أوامر سيده الشيخ المرحوم .

وتمضي ليلة مزعجـــة وبشرق الصباح ، وإذا بضابط بوليس وسكرتير ومهندس يدخلون البيت . ويخبر الضابط الفتى بأن المهندس يريـد شراء البيت ليحوله إلى مصنع للأجهزة الالكترونية .

وما أن يرى الفتى المهندس حتى يتبين له أنه لص البارحة نفسه ، فيحاول الاحتجاج والصراخ دون جـدوى فالرجل مهندس محترم . ويضطر أخيراً لبيع البيت بالتركة التي خلفها له الشيخ . لقد انتقل بيت صاحب المعجزات إلى صانع معجزات آخر . إن القصة تعيد فكرة « أولاد حارتنا » في إطار مسرحي . الفتى هو وريث أبيه صاحب الكرامات : « ورثت عنه الدجـل لأستثمره في مجاله الطبيعي » . « إني أعاشر مغامرين وكان يعاشر مغفلين » .

وكما انتهى عهد الدجل تم المغامرة ، فلابد أن يبدأ عهد جديد هو عصر سيطرة العلم ، الذي يحتاج أيضاً الى شيء من الدجل والمغامرة . المهم أن الهزيمة قد لحقت بالفتى المغامر صاحب الحَمارة وزارع الطمأنينة في قلوب البشر ، كما لحقت بأبيه الشيخ الصريع صاحب الطمأنينة المشابهة ، وأن البيت القديم سيصبح بيتاً جديداً : مصنعاً للأجهزة الالكترونية .

مستقبلية الادب وسطوات النقد التقليدي

ما زال نجيب محفوظ الذي كتب عن النكسة لأول مرة في مجموعة قصص تمثيلية أصدرها بعد الخامس من حزيران بعنوان « تحت المظلة » ، داخل الثور النحاسي للأحداث تطوقه النيران من كل جانب . إلا أن صراخه ليس صراخاً موسيقياً هادئاً على الإطلاق . إنـــه صراخ أنيق مغلف برموز شكلية

بحتة .... ولما كانت هذه الرموز شكلية وتتحمل الكثير من التأويلات غير الفنية ، فقد بدت أشبه شيء بمجموعة من قلائد وأساور وخواتم الحرز ، وتيجان الريش الملون والأقنعة والأشرطة التي يضعها رؤوساء القبائل البدائية في (أوستراليا) عندما يتدافع المصورون لأخذ الصور الفوتوغرافية لهم .... » .
ويستمر الناقد موضحاً كيف أن سيدالزمان هو الآني في زمانه، وكيف أن الرمز « ليس أداة لتعتيم الفكرة واسباغ جو من الابهام عليها وارباكها بالدلالات غير المسؤولة ، كما هو الأمر بالنسبة لمجموعة (تحت المظلة) » .

لعل هذا المقطع النقدي الذي اقتطفته يضم معظم نقاط الهجوم ضد « تحت المظلة » ، كما يجسد عدداً من المغالطات التي يرتكبها عادة النقد التقليدي تجاه تجارب الأدب الطليعي . والواقع أنه تعذر علي فهم علاقة تيجان وقلائد أوستراليا بكتاب نجيب محفوظ ، وكذلك معنى الدلالات غير المسؤولة . يبدو أن النقد أمام المهام الصعبة ينحو نحو الخلقلة اللغوية والمعميات ، بقصد اخضاع النقد للتأويل والتفسير وتحريم ذلك على الأدب . أفلا يبدو هذا عجيباً حقاً ؟

البديهية الأولى هي أن الأدب عبارة عن عملية إبداع جوهرها رؤياالفنان للعالم ، وليس عبارة عن عملية صياغة وتشكيل . والفرق بالطبع كبير بين الإبداع والصياغة ، فعملية الابداع عملية يختلط فيها الشعور باللاشعور ، بينما الصياغة عملية شعورية بحتة أساسهاالتلاعب بمعطيات اللغةوالفن لتقديم بعض الاعمال . إن محفوظ لايملك أن يختار كتابة إحدى قصص « بيت سيء السمعة » اليوم ، وهو لم ينح منحى الغموض رغبة منه في التعقيد أو في تجاوز زمانه ، بل كان تطوره مرحلة طبيعية جداً في سلسلة نموه الأدبي ، أما عدم تطوره فكان يعني انه انتهى فعلاً . دورالنقدالحديث ، كما أراه ، وبالأخص النقد غير المتمذهب ضمن إطار

فلسفة معينة ، دور تحليلي وليس بتقييمي . لأن أي حكم مسبق يعني ادراج العمل الخلاق ضمن أطر ذوق الناقد الشخصي .

لابد اذن أن يتوفر للنقد الجيد قدر معين من « الموضوعية العالمية » مهما كان حجم ادعاء الذاتية في النقد صحيحاً .

أما البديهية الثانية فهي مستقبلية الأدب . وبهذا الخصوص أذكر عبارة للكاتب المسرحي النرويجي هنريك ابسن وهو يتحدث عن بطل مسرحيته « عدو الشعب » . يقول ابسن : « في مدى عشر سنوات قد تصل الأغلبية إلى النقطة التي أدركها ستوكمان في اجتماعه العام ، إلا أن الطبيب لن يقف ساكناً طوال هذه السنوات العشر ، ولسوف يظل أسبق من الأغلبية بعشر سنوات » . انه تعبير عن الإيمان العلمي بديناميكية التطور ، وقيادة الفكر بالنسبة للمجتمع . أما رينيه كلير ، أحد كبار السينمائيين الفرنسيين والعالميين فينصح قائلا : « في كل لحظة من لحظات اخراج الفيلم حاول جاهداً أن تضع نفسك مكان متفرج المستقبل ، ولا تنس أنه ليس هناك مايدعو المتفرج للبقاء في مقعده إذا كان مايقدم اليه لايهمه ، ولا يلفت نظره » . لسنا ضد الواقعيـــة ، فهي كانت ومازال منبع إلهام واسع ، لكننا نقول ان « تحت المظلة » ألبست الواقع ثوباً فنياً جديداً بوحي من طبيعة رؤياها .

ولنذكر أن الواقعية ليست الاتجاه الأدبي الوحيد ، والا لاكتفينا كل صوت جديد ومبدع . الأدب بطبيعته مستقبلي ، ولانرى مجالاً لتجريده عن هذه القدرة . ولو كان العكس هو الصحيح ، لما كان هناك بيرانديلو او أوكيسي أو كافكا أو اليوت ، ولما كانت هناك في الفن انطباعية فسيريالية فتجريدية ، ولما كانت هناك سينما جديدة ، ولامسرح طليعي . إن بهلوانية النقد التقليدي ستترفض

بالطبع كل طليعي في الأدب إما بسبب عدم وضوح الرؤية النقدية ، وإما بسبب المغالاة في الذاتية والثقة بالنفس . لكن الأدب يستمر بالطبع في طريقه المستقبلي كرائد للناس . الغريب أن هذا النوع من النقد بدأ يتفشى لدينا ، خصوصاً بعد ظهور ترجمات لنقد كولن ويلسون المزاجي المتعجرف ، وتبني كثيرين لها. علينا أن ندرك تماماً أنه اذا ضغط مشد النقد على جسم الأدب ، خنق الابداع في صوته المتدفق . فصحيح أن الفن علاقة بين الحس المبدع والحس المتلقي ، لكن هذه العلاقة لاتبدأ بمزاج الثاني ، بل تصبو لأن تصبح الحصيلة . وواجب النقد أمام العمل الأدبي هو تحليله ، ودراسة مدى ملاءمة اساليبه لجوهره . أمـــا الوضوح والغموض ــ ومحفوظ يسخر من تطلع الناقد اليها في « مشروع المناقشة » ــ فهما ليسا اختياريين ككتابة النقد ، ومن المضحك حقاً أن يقال لشاعر كأدونيس مثلا : كن واضحاً ، أو لمسرحي كمحمود دياب : كن غامضاً !! فهذا منطق قارىء تنقصه النظرة العامة .

ان نجيب محفوظ يترك لذاته المبدعة حرية الاختيار : « **فالمضمون الذي أفكر فيه وما وراءه من انفعال** » ، كما يقول « **هو الذي يحدد لي الشكل دون عناء ، ودون اكتراث بقدمه أو جدته . التكنيك بالنسبة لي مناسب أو غير مناسب** » . ونلاحظ في « تحت المظلة » التزاماً بما يقوله هنا .

إن نجيب محفوظ يكتب بوعي والتزام كبيرين دون أن يكرر نفسه ، وهذه ميزته الكبرى كما نعتقد . ولا شك أن مظلة محفوظ ستفرش ظلاً سوف يكتشفه النقد المباشر بعد حين .. ظلاً في حر استمرار الاحتلال لأجزاء من أرضنا العربية ، ظلاً يعدنا بأن يثمر الانتظار والصمود بثمار الانتصار .

الحزن والغربة في الحدائق المدماة

نواف أبو الهيجاء

- ١ -

ثلاثة أصوات شعرية جديدة تنطلق في آن واحد من القـــاهرة . ثلاثة اصوات متشابهة الى حد تكوين عالم واحد، وثلاثة اصوات مختلفة الى حد تكوين ثلاثة عوالم كل عالم متميز عن الآخر .

« الدم في الحدائق »(١) مجموعة شعرية اشترك فيها كل من : محمد مهران السيد ، حسن توفيق ، محمد عز الدين المناصرة. أقول مجموعة ولا أقول مجموعات، لأسباب جوهرية تتعلق بذلك الانسجام التام الذي جمـــع بينهم . فهم شباب ، يعيشون في القاهرة. ولكن لكل منهم تجربته، ولكل منهم رؤاه الخاصة وصوته الخاص . وفي هذه الدراسة، التي لا أسميها نقدية، بل أسميها محاولة فهم ، سألجأ الى تبيان نقاط التشابه بينهم ونقاط التمايز أيضاً .

(١) الدم في الحدائق : مجموعة شعرية للشعراء : محمد مهران السيد ، حسن توفيق ، محمد عز الدين المناصرة – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٩

تلك الروح الشفافة لشعراء شباب تتكشف لك عندما تغوص معهم في الج الحياة الصاخبة ، حيث نزق الشباب وتمرده وإرادته القوية تجابه جميع ألوان التجارب العقيمة والمثمرة ، مر الحياة وحلاوتها . فما من رد فعل يأتي عنيفاً عنف رد فعل معاكس من شباب مرهف الاحساس،تلك الروح الشاعرية التي تجعل من رؤاه رؤى نبي مايلبث أن يكشف عن زيف الأقنعة التي تطوق حياته والأصباغ التي تضيع تحت وهج الشمس والعرق والمطر. الحياة وتيرة واحدة .. والضحكة ان جاءت كانت كومض مريع في ليلة عاصفة :

« علمني ان السور الواطىء تقفزه حتى القطط العمياء
علمني أن الضحكة أقصر عمراً من كل الأشياء »(١) .

ولعل حزن محمد مهران السيد ليس عنيفاً عنف حزن « حسن توفيق » . والسبب في ذلك الهجوم الواضح للحزن على حياة الشلالة هو ادراكهم العميق لمأساة حياتهم الرتيبة المملة في المدينة الصاخبة الفارغة. فقدان الروابط جميعاً ، في رأيي ، يولد احساساً مريعاً بالحزن العميق لدى الانسان الشفاف، فهم يصلبون في المدينة ، وهم ضائعون في زحمتها يبحثون،ولكنهم لا يجدون ما يبحثون عنه . ماذا يجدون إذن ؟

يكتشف مهران السيد أنه :

« لما كنا من مخلوقات مدينتنا البراقة
صرنا لعبتها المحشوة من أطراف القدمين الى الرأس
.. بصنوف الفزع المشحوذ الحدين ، وانواع اليأس »(٢)

---

(١) الدم في الحدائق : محمد مهران السيد ص (٥٤) قصيدة «ماقالته الليلة الماضية»
(٢) المصدر ذاته ص ٧٢ من قصيدته (عن الحب والمدينة)

بيد أن لحزن محمد عز الدين المناصرة – الشاب الفلسطيني – اسباباً أخرى أعمق وأعنف . انها أسباب لا يمكن أن تنسى في لحظة . تدخل حياته .. من جميع أبوابها ، وتتشبث بكل زاوية وطرف . محمد شاب فلسطيني ، كان عـــام ١٩٤٨ في اعوامه الأولى . فتح عينيه وإذا به أمام غوائل الدنيا . هو وحيد طريد ، محاصر من امامه ومن خلفه . أمامه يكمن مستقبل مجهول ، وتطـــارده الذكريات المؤلمة :

« وألقانا الزمان المر في بحر بلا أطراف
ورحنا نسأل العراف
عن الجزر الرمادية
عن المرجان والياقوت والسفن الشراعية » (١)

هذا عن المستقبل . انه مجهول ويبعث على الخوف والاحساس العميق بالضياع ، وبالتالي بالحزن . أمـــا عن الماضي فالصور الرهيبة تبعث في نفسه حزناً أعمق . حزنه له جذوره ، وحزنه مرتبط بأحزان شعب كامل .. إنه ليس حزناً « ذاتيا » بقدر ما هو حزن « موضوعي » :

« رأيت بنات آدم في كروم الصيف
رأيت الطفل مذبوحاً بحد السيف
رأيت بنات حارتنا
يجرجرهن سوط الموت والنخاس » (٢)

وهذا ، إن كان سبباً يدعو الى الحزن ، فثمة اسباب أخرى عند المناصرة تدعوه الى اكثر من ذلك .. الى اشد من ذلك . انه مطالب بالثأر للطفل المذبوح بالسيف ، ولبنات حارته اللواتي جرهن النخاس في ساحات القرية ثم طردهن . إنه

---

(١) المصدر ذاته ص ١٤٩ من قصيدته (رسالة الى فروتا)
(٢) المصدر ذاته ص ١٥١ « » » » »

إذن ، امام اختيار رهيب : إما أن يحاول الاندماج في المجتمع الجديد محاولاً نسيان ثأره المؤرق ، وهذا أمر مستحيل لأنه يطارده في نومه ويقظته واثناء تناول الطعام وحين يكون مع محبوبته .. او يتقدم من أجل الثأر . والثأر يتطلب عدة ، عليه اذن ان يحارب . ولكن ، ومن جديد ، يأرق المناصرة . فهل يجد الحل في الخمرة كما فعل امرؤ القيس ؟

« دعوني على زق خمر وخلوا يدي تحمل ...
الكأس حتى تطاول رأس المجره
ولا تطلبوا الثأر آل حجر فاني
قتيل العذارى وكأس من الخمر
لم ادخل الحرب مره . » (١)

يقابل هذا الاحساس بثقل المسؤولية عند المناصرة ، إحساس بثقل الحياة وتفاهتها عند كل من مهران السيد وحسن توفيق . فاذا كان المناصرة لا يريد المطالبة بالثأر لأنه قتيل العذارى والخمر ، فان مهران السيد ايضاً قتيل الحانة هو الآخر :

« وككل مساء ..
تجرفني الظلمة ..، تلقيني في زاوية الحانة » (٢)

أما حسن توفيق فهو أكثر حزناً من الاثنين . ان الحزن عنده واضح . ولعل قصيدته « الدم في الحدائق » تعطينا جميع الأسباب التي يراها حسن مدعاة للحزن والقلق والخوف . حسن من جيل الضياع حقيقة . حسن من جيلها، وهذا طبيعي، ولكنه يغترف من الحزن أكثر منها، رغم ان المبرر لحزن المناصرة

(١) المصدر ذاته - ص ١٣٨ من قصيدة « قفا نبك »
(٢) « « - ص ٣٥ « « « فقرات من مذكرات مبعثرة »

كان أعمق وأوضح وأعنف . لنأخذ هذا المقطع من حسن توفيق فهو يكشف لنا ، بوضوح تام ، عن جميع ابعاده النفسية :

« نهر الرماد يفيض في بطء على الارض الخراب
وعواصف الشجن المليئة بالفراغ تضج في أيامنا
وتدق ناقوس الاسى في هيكل الذكرى وفي زمن العذاب
وكأنها تنعي لنا ما ضاع من احلامنا
من بعد أن صلب الحنان على الروابي والهضاب
وتقلصت حتى رؤى أوهامنا
من بعد ان غرقت سعادتنا ، هنا » (١)

أصحيح إذن ان احزان حسن توفيق ذاتية فقط ؟ الا ترتبط بالحزن « العام » منطلقة من الحزن الخاص ؟

أجل ، ان احزان الشباب الثلاثة ذات ابعاد واسباب ، ذات ابعاد انسانية لأنها ذات أسباب موضوعية بالدرجة الأولى والأخيرة . صحيح ان لها انعكاساً « فردياً » عند كل منهم ولكنها ، كما سوف نرى الآن ، تنطلق من « الانا » لتستقر في « المجموع » ، أو أنها تعمم ثم تخصص من أجل ان يكون لها الوقع الاكبر ، كما كانت هي نتاج أكداس هائلة من مسببات تاريخية وحضارية وانسانية .

- ٣ -

اذا عدنا نبحث في اشعار الثلاثة من جديد عن نقاط التقاء أخرى تعالج من زوايا مختلفة باختلاف حدة التلقي ومدى « لجم » الانفعال وضبطه ، نجد ان ثمة شمولاً انسانياً يميز اشعارهم دون بريق خداع من « الاعلانية » او « الاعلامية » الفارغة .

(١) المصدر ذاته — ص ٨١ — ٨٢ من قصيدة « الدم في الحدائق »

« – ماذا بعد خروج الأصحاب .. من الحانة ؟

– نتساق أكتاف الليل المنتصب القامة .. »

....

....

الى أن يقول :

« كانوا عصبة طلاب في العشرين ،

عبر الحارات الملتوية والطين ... » (١)

إذن ، كما يقول مهران السيد هنا ، فالشباب يبحثون عن خلاص .. عن خلاص من ماذا ؟ انهم ضائعون في زحمة المدن الفارغة . لا يعرفون المستقر ، ولا يعرفون الخلاص . ماذا هناك ؟ ما الذي يؤرق الشباب غير « داء النزق » ؟

« لم يكن هناك في الطريق

سوى المعابر التي تضيق !!

يسدها الفساد بالسنين

والف الف .. حارس هناك ، لايفيق » (٢)

الفساد المستشري ، ولا من يقف متحدياً أمامه . فالحراس نيام ، بل لا يبدو عليهم انهم سيستفيقون في لحظة ؟ هم شبه أموات كما يراهم محمد مهران السيد .

ماهو رأي حسن توفيق في هذه المعضلة التي يعرضها مهران السيد !؟ بما أن حسن توفيق من الجيل ذاته ، وتربطه بالآخرين رابطة صداقة فينبغي لهان يشاهد مايشاهدان ، ونحن لانطالب منه ان يكون انفعاله نسخة « طبق الأصل » عن انفعال كل منهما . قلت من البداية إن الاصوات الثلاثة متشابهة ولكنها متمايزة .

(١) المصدر ذاته : محمد مهران السيد ص ٤٥ – ٤٦ من قصيدة (ثم ماذا) .

(٢) المصدر ذاته : محمد مهران السيد ص (٥٢) قصيدة (بقبلة ودرهمين)

« ولكننا نستفيق

على صوت روح حزينة

وقلب ببحر المآسي .. غريق »

أهذا زمان السكينة ؟

أهذا زمان القمر ؟

ورياح لعينة

تحطم كل الشجر (١)

هذا الفراغ الذي يعيشه الشباب ، وهذا البحث الدائم عن « فكر » هو الملاذ لهم .. أقول هذا هو شغلهم الشاغل . ومحمد عز الدين المناصرة ، كما قلت ، يعاني مايعانيان : الاحساس ذاته بالضياع ، وبالفراغ . ولكنه يعاني من المشكلة المصيرية التي تطارده أينما حل ، وكيفما ذهب . ذلك الثـــأر الذي يلاحقه . هل ينكره !؟ إنه ليس ثأراً من ذلك النوع العادي، وانتهى الأمر بنهاية ليست عشائرية، بل هي قضية أرض ووطن . ولكنه في المدينة يحاول قليلا أن ينسى .

« أول الليل أجر الخطو .. لاتدرين أين ؟

نحو مقهى اشرب الاحزان من جدرانه قرب (الحسين)

ثم ادعو للحسين

بالرضا عن رأسه والراحتين »(٢)

في عالم المناصرة يحني كل شيء رأسه ، حتى الشجر . الشجر الذي يقاوم العواصف والرياح يحني رأسه ولم يعد يرفع رأسه نحو السماء .. إلا أن المناصرة لايبكي ..

« ويردني شبح الشباب عن البكاء »

الى أن يقول :

---

(١) المصدر ذاته : حسن توفيق ص (٩١) من قصيدة (من ليالي الفراغ)

(٢) المصدر ذاته : محمد المناصرة ص ١٥٧ من قصيدة (المقهى الرمادي) .

« في الليل يرتد البكاء المر منهمراً الى صدري
واصيح طول الليل : يادهري !
وطني بضيع ولا أقول
آه من الليل الطويل !
لو كنت أملك أن يردا
ذهب الذين أحبهم
وبقيت مثل السيف فرداً »(١)

لم تصل الامور ، بعد ، بالمناصرة الى حد الاستسلام الكامل . صحيح أنه مهزوم وأنه يريد أن يبكي وحدته وضياع أهله ، وموت الذين يحبهـــم ، واغتصاب أرضه ، الا أنه ما يزال يملك حدة السيف وصلابته رغم وحدته .

محمد المناصرة وحيد ، ووحدته هي « اليتم » الكامل . اما مهران السيد فهو ايضاً وحيد ووحدته من نوع آخر ، مؤلم أيضاً ، ولكـنه نوع آخر على كل حال . فهو التقى بحبيبته ومضيا سوية الى مقهى ، وأخذا يتحدثان . ثم ماذا ؟

« لكن لاجدوى .
.. فهناك مسافات ، ومسافات ، ومسافات .
والجسر تهاوى ، وتهدم ..
لايحتمل اللمس ، ولا همس الخطوات ! » (٢)

وهكذا يمضي كل واحد في طريقه ، دون ان يلتفت الى الخلف . ومعنى ذلك ان كلاً منهما قد عاد وحيداً ، رغم أنهما التقيا وجلسا وتحدثا . إنهـــا آلة المدينة المرهقة الفارغة . ففقدان الرابطة في المجتمع المعاصر سبب أساسي من أسباب الشعور بالغربة ، بل باللاانتماء في الكثير من الأحيان .

(١) المصدر ذاته : محمـد المناصرة ص (١٦٠) من قصيـدة (ذهب الذين أحبهم) .
(٢) المصدر نفسه : مهران السيد ص (٥٩) من قصيدة « ولكل وجهته »

اما عن حسن توفيق الحزين من هذه النتائج في المجتمع المعـــاصر ، من فقدان المحبة والحنان ، ومن الفراغ والزيف، فهو أيضاً وحيد ومطارد .

« الليل قد سكب النعاس على الشوارع في المدينة
وانا بلا هدف أسير »
« الموكب الباكي أتى ، وأتى العناء .. أتى العناء » (١)

السائر بلا هدف انسان حزين ، ضائع ووحيد . الثلاثة يبحثون عن حل . دعنا نرى حلهم .

- ٤ -

محمد مهران السيد ، في لحظة انفعال ، شخص الداء بأنه يكمن في كونه نزقاً (في قصيدته توطئة ص ٣٢ - ٣٣) . ثم أخذ يتفحص غده . الرؤى الرهيبة التي قالتها الليلة الماضية تدعوه للبحث عن خلاص وبسرعة :

« قالت أيامي الآسنة الملقاة على الدرب
انك ستعود غريباً يشكرك الكل
رواد المقهى ، ليسوا سمار الأمس
رحل الجيران تباعاً ،
.. والجدد الغرباء ينامون .. اذا طاف العسس المستيقظ
في الليل
أما الأهل !! » (٢)

أهنا إذن تكمن دعوة الخلاص ؟ العودة الى الذات ، والانكماش ، أم انها الالتصاق الى حد التشبث بالصدق مع الذات في نظرته الى « الآخر » ؟ ونتاج الصدق مع الذات عند مهران هو الشعر :

(١) المصدر ذاته : حسن توفيق ص ٩٦ - ٩٧ من قصيدة « الذبول »
(٢) المصدر نفسه : مهران السيد ص (٥٥) من قصيدة « ماقالته الليلة الماضية»

« لاتفلت من يدك .. الشعر » (١)

إذن هو الخلاص الوحيد كما ترى الليلة الماضية ، أو امه . ويعيد مهران السيد الكرة على هذا الحل من جديد في قصيدته « أماهم » إذ يقول :

« فلعل الشعر يضيء سبيلهم
ولعلهم ... » (٢)

بما أن الشعر دفقة إحساس صادقة من أعماق النفس الإنسانية .. نتاج مخاض هائل يجري في الأعماق ، نتاج تجربة ودراسة وعاطفة ، وسيل من العواطف الانسانية المدارة ، فلا شك ان في كل إنسان نقطة مضيئة . وهذه النقطة هي التي تحرك زوابع الشعر .. أقول بما أن الشعر هو النقطة المضيئة فلا شك إذن أن مهران السيد يرى الخلاص في العودة الى جوهر الإنسان بعيداً عن الأدران والاتربة التي نتجت عن زيف المجتمع المعاصر وعن هدم الكثير من الأسوار التي كانت تسود العلائق الاجتماعية .

أما حسن توفيق فهو حائر في اكتشاف الأسباب :

« من الناس أم من تخاذل نفسي
أود الفرار ؟
صرخت بعزم لساعة غمسي
أين النهار ! » (٣)

هو إذن يبحث عن خلاصه . لم يعد بمستطاعه ان يستمر على هذا المنوال من حياة الضياع ، والفراغ ، والبحث الدائم عن الأسباب :

(١) المصدر نفسه : مهران السيد ص (٥٦) من قصيدة « ماقالته الليلة الماضية »
(٢) المصدر ذاته : مهران السيد ص (٦٤) من قصيدة « أماهم »
(٣) المصدر ذاته – حسن توفيق – ص ١٠٤ – من قصيدة (حكايا الظلال) .

« النسر أرهقه الصعود
ماذا يحس سوى القرف
وسوى الفراغ بلا حدود » (١)

ولكن حسن توفيق ، أثناء بحثه عن الخلاص ، يصدم بحزيران ، وينفتح أمامه عالم جديد ، ويشاهد أشياء جديدة !! ربما كان الاستعمار يتدخل في كل شيء في حياتنا ، أجـــل ، لم لا ؟ ان مسألة حزيران وقضية فلسطين والفيتنام والهند ، مرتبط بعضها ببعض . ان الأمور الجارية في عالم والسياسة ، هي في الحقيقة أمور تدخل في خبزنا اليومي ، في طعامنا ، وشرابنا ، في نومنا ، وفي يقظتنا .

« ونحن ياحبيبي نطلق ضحكة »
تذوب حين افتح المذياع
تذوب برهة
ثم تعاوه الرنين
(هانوي في الظلام ، والقنابل المروعة
تهطل تهدم البيوت) » (٢)

اننا في كل ما نحياه ، مرتبطون بما يجري في هذا العالم . علاقة جدلية : نتأثر ونؤثر ، ويتأثرون ويؤثرون . وهكذا فإن المحنة انسانية شاملة : نحن لا نستطيع أن نحس بالأمان بينما إطلاق الرصاص يدور في شوارع هانوي ، أو في أي جزء من أجزاء العالم :

« اسمع ان الأم في الهند تبيع طفلها
من أجل كسرة من الخبز بلا مذاق » (٣)

---

(١) المصدر ذاته – حسن توفيق – ص ١٠٦ – من قصيدة (الرحيل)
(٢) المصدر ذاته – حسن توفيق – ص ١٢٣ – من قصيدة (حكاية النعامة) .
(٣) المصدر ذاته – حسن توفيق – ص ١٢٤ – من قصيدة (حكاية النعامة) .

هنا تتجلى ايجابية حسن توفيق حين يصرخ بحبيبته :

كيف يمكن لنـا يا حبيبتي – ان نرشف ما نريد من حبنا ، وكل شيء حولنا يذكرنا بأننا نعيش في عالم يقذف الأحجار ؟ »

فهو يدعوا الى العمل . إنه هنا لا يفسر فحسب ، أي لا يقف على الحياد، بل هو يدعو الى العمل لأنه ان لم يفعل شيئاً ظل مؤرقاً وظلت تطارده في كل ما حوله ، في كل ما يفعله ، المآسي التي تدور في هذا العالم . لكأنه هو الآخر مطالب بأخذ الثأر ، كما هي الحال عند محمد عز الدين المناصرة .

ماذا بالنسبة للمناصرة ، الفلسطيني الطريد ؟

في البدء كان اتكالياً مهزوماً مستسلماً ، وحين يطالبونه بالثأر لا يملك إلا أن يقول :

« يا حمامات السهوب
ابلغي عني التحية
قبل موتي للحبيب
دار السمراء شرقي اليمامة
وأنا أسقط مهزوماً الى يوم القيامة
يوم يأتي الشعراء
يدخلون الجنة الخضراء قبل الانبياء » (١)

الشاعر هنا كزرقاء اليمامة لا أحد يصدقه ، إلا بعد أن تقع الواقعة . ظل الشاعر ينبه وظلوا يصرخون فيه :

« اسكتوا ياغرباء
فوراء الثأر منا خطباء
ووراء الثأر منا حكماء » (٢)

---

(١) المصدر ذاته – محمد المناصرة – ص ١٤١ – من قصيدة (قفا نبك)
(٢) » » » – ص ١٥٧ – » » (المقهى الرمادي)

المناصرة لم يقع كغيره في أحابيل الإعلام المتهالك الذي كان من اسباب النكسة . المناصرة لم يقع ككثيرين من الشعراء فريسة الانفعال والحماس الفارغ . وإذا كان بعضهم يرى أن يسكت الشعراء ، وبالتالي أن تسكت الرؤى وتذوب ، فالمناصرة يلجأ الى الأرض والطبيعة في فلسطين السليبة .

« تقول تقول : ياعنب الخليل الحر .. لاتثمر
وإن أثمرت كن سماً على الاعداء .. لا تثمر »(١)

وإن كان هذا يمثل رغبة في العمل ، كرد فعل فيه ايجابية محبة تتجه الى كل شيء ، فإن المناصرة لم يقف عند هذا الحد ، رغم ذلك الحزن المشرش في اعماقه ، ورغم تشبيه نفسه بامرىء القيس ، ورغم انه لم يحارب ولا مرة . لقد كتب عن حاضره ، عن مأساة شعبه ، دون مبالغة ، ودون بث الأراجيف . وفي القصائد العشر المنشورة له ضمن هذه المجموعة لم يحدثنا عن رؤياه الا مرة واحدة حين يقول :

« وجاء الصباح وفي قبضة أزهر الصمت ..
في عينيه بهجة النصر .. كانت تحوم
رياح الصبا في سما اورشليم » (٢)

- ٥ -

وبعد، فان الحديث عن هؤلاء الشعراء الثلاثة يطول لأنه حديث عن عصرنا كله ، حديث يشمل جميع مشاكلنا ، العامة والخاصة ، الموضوعية والذاتية ،

(١) المصدر ذاته – محمد المناصرة – ص ١٦٦ – من قصيدة (يا عنب الخليل)
(٢) المصدر ذاته – محمد المناصرة – ص ١٧٠ – من قصيدة (موسى بن ابي الغسان) .

المصيرية واليومية . فهم شعراء ثلاثة يجسدون ، في أشعارهم ، ردود افعال جيل كامـــل هو جيل المخاض والتجربة والفعل والمأساة والانتصار في آن واحـد . هم نتاج جيل يعيش لحظات التغيير الشامل - المتوقع - بدءاً من الانقلاب على زيف العلائق العصرية ، وانتهاء بالتمرد على كل اسباب التأخر والهزيمة والضياع .

وكما قلت منذ البدء،فإن لكل شاعر من هؤلاء الثلاثة وعيه الخاص لتجربته ولثقافته ولقضيته ، ولكل واحد منهم ايضاً رؤاه الخاصة ، ولكنهم يشتركون في أمور اساسية، منها : وحدة الحال ، السن الواحدة ، المعالجة .. المعاناة !

ان أصوات الشعراء الشباب الثلاثة - مهران السيد ، حسن توفيق ، محمد عز الدين المناصرة - تبشر ، كما أرى ، بميلاد جيل جديد من الشعراء الشباب.

ولست أنكر انني لمست في شعرهم تأثير جيل آخر كامل من الشعراء الرواد مثل : السياب ، والبياتي ، وعبد الصبور ، وحاوي ، إلا ان هذا التأثير كان بسيطاً الى درجة الاعتقاد بأن ذلك مجرد مرحلة ، ومجرد ارتباط بالجذور التاريخية للشعر العربي الحديث. فلقد ظلت لهؤلاء الشباب رؤاهم الخاصة واساليبهم الخاصة بهم ايضاً ، وإن كانت الروح الحزينة سمـــة العصر كله ، فهي ، عندهم ، عامل ايجاب لا عامل سلب .

ولعلي لا اخطىء إذ اترك الجوانب الفنية في تجربتهم الشعرية لغيري من من النقاد ، فإنني وكما نوهت منـــذ البداية ، لم أحاول إلا تسجيل انطباعاتي بعد قراءة المجموعة الشعرية الجديدة التي اصدروها .

اذا كانت الايدي المجرمة قد ذبحت البلبل الغريد في الحدائق ، فسال دمه يجبل التربة ، فلقد انطلقت ثلاثة أصوات قوية كالرعد ، فيها زخم الشباب ، ترفد الحدائق المدماة بعوامل الطمأنينة والهدوء والخصب .

المحصول الفكري للمتنبّي (١)

سهيل عثمان

منير كنعان

عرض : ظافر عبد الواحد

انطلق كتاب (المحصول الفكري للمتنبي) من رأي أرسطو بأنه لا بد للمرء من أن يتفلسف شاء أم أبى . ورغم أن عنوان الكتاب اوسع من مدلول الفلسفة ، فان أبوابه تذكرنا بالميتافيزيقا والبوليطيقا والاسطاطيقا الاغريقية . ان المؤلفين ، واولهما مختص بالفلسفة والآخر بالأدب ، يمسحان شعر المتنبي فيعيدان تصنيفه على أبواب الفلسفة . واذا لم يكن المتنبي فيلسوفاً ، فان في شعره آراء تجيب على معظم القضايا الفلسفية .

---

(١) دار الارشاد – بيروت ١٩٦٩

يكتشف المؤلفان الإلهيات في باب (العقيدة) ، فالمتني مؤمن بالله :

وثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنا النحل في الفم

وهو مؤمن بوجود الملائكة :

أو يرغبوا بقصورهم عن حفرة حياه فيها منكر ونكير

« ويأخذ شاعرنا جانباً كبيراً من معلومات عصره الدينية والتاريخية والفلكية ويقبله كسلمات لا تحتاج الى مناقشة ، إما لأنه يعتقد به أو لانشغاله عن تمحيصه بأمور تفوقه أهمية . ويستفيد شاعرنا منه استفادة فنية بأن يتخذه وسيلة التشبيهات والمقارنات وضرب الامثال . بعض هذا الجانب حقيقي وارد في النصوص الدينية والكتب التاريخية المثبتة ، وبعضه خيالي تناقله الناس تناقل الأساطير والحكايات فأصبح جزءاً لا يتجزأ من عقليتهم وغـدوا يطربون للقول اذا ما احتواه، وبعضه مزيج من الحقيقة والوهم » (ص ٢٨) من ذلك إيمان المتنبي بأن آدم كان يعيش في الجنة ، ثم طرد منها بعد أن عصى ربه :

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

وبالاضافة الى إيمانه بالله وملائكته ، فهو مؤمن برسله ومعجزاتهم :

أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

فمبالغته في أن ضربة سيف ممدوحه تجعل من المستحيل على عيسى احياء المضروب عنه ، تتضمن اعترافاً بمعجزة عيسى في إحياء عازر ، وإن اعترافه بالانبياء لا ينفي ادعاء النبوة عنه ، بل يرجحه ، لأن الملحد لا يدعي النبوة ، وما يدعيها إلا مؤمن . ولكن المؤلفين ينفيان هذه التهمة عنه بحجج منطقية .

ومن المشاكل الرئيسية في الميتافيزيقا ، القدر . فاذا كانت العدالة تقضي بأن يجني الانسان ثمرة عمله ، فهل هناك عدالة إلهية ؟ إن أبا الطيب يجيب جواباً غير مباشر على هذا السؤال :

أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

وقد جاب المتنبي عصره مادياً ومعنوياً بأسفاره ومطالعاته «فاطلع على مختلف التيارات الدينية والفلسفية التي كانت تملأ زمانه المضطرب القلق ، المزدحم بالاتجاهات والديانات ، حتى وردت على لسانه بشكل عفوي ، وامتزج بعض تعاليمها بشعره امتزاجاً محدوداً أو واسعاً . فقد ذكر المانوية والمجوس واليهود والسامرية والمسيحية والدهرية والمعطلة وأصحاب قدم العالم ذكراً قليلاً لم يسوغ لباحث واحد من باحثيه جعل تأثره بها كبيراً أو نسبته الى أحدها » (ص ٧٣) من ذلك قوله :

أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون مجوسا

ويبحث المؤلفان عن موقفه من مشكلة الخير . فيجريان جرداً للمناقب التي أنعم بها على من أراد إكرامهم والرفع من شأنهم ، فنجدها نفس القيم الاخلاقية التي كانت شائعة بين العرب : الشجاعة والكرم ورجاحة العقل والعزيمة والنبوغ المبكر والعفو عند المقدرة والوفاء والصدق والهيبة والطموح والعفة والاسلام والفصاحة ولطف المعشر والجمال ، من ذلك قوله :

يعطي فلا مطلة يكدرها بها ولا منة ينكدها

والرذائل عنده هي ضد هذه المناقب :

...ورب مال فقيراً من مروته لم يثر منها كما أثري من العدم

وأهم ما يميز الشاعر عند المؤلفين طموحه :

أين فضلي إذا قنعت من الدهـــر بعيش معجل التنكيد

ولم يتبع المؤلفان التصنيف الاغريقي الذي يعتبر السياسة علماً واحداً ، شأن افلاطون وأرسطو ، بل أفردا باباً للمجتمع على غرار عمران ابن خلدون ، وباباً للسياسة على غرار كتب المجتمع المدرسية .

ويدرس المؤلفان بنية المجتمع الذي كان يعيش فيـه المتنبي ، ولا سيما الطبقات والأنساب والأسرة الصغيرة . ورغم احترامه للمثقفين من أدباء وعلماء فقد قال مخاطباً بدر بن عمار بعد قصد فاشل :

عذر الملومين فيك أنهما   آس جبان ومبضع بطل

ولكن هذا لا يعتبر هجاء للأطباء ، وإنما للذي أجرى القصد وحده .

والمرأة عنده هي : امرأة الحب وامرأة الحنان وامرأة المجد . قال في رثاء أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حنوط   على الوجه المكفن بالجمال

ولاحظ المؤلفان أن المتنبي يتطلع إلى صورة متكاملة تجمع بين مزايا البداوة والحضارة . فبينما يعجب ببساطة أهل البادية :

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

يهجو الأعراب عندما حاول بنو كلاب الانفصال عن الدولة العباسية :

أرادت كلاب أن تقوم بدولة   لمن تركت رعي الشويهات والإبل

ولا دور للجمهور في مجتمعه ، بل هو حكم الفرد العادل :

غاب الأمير فغاب الخير عن بلد   كادت لفقد اسمه تبكي منابره

ولم يكن مرتاحاً إلى مجتمعه ، ولكنه لم يطرح حلاً جديداً ، وإنما اكتفى بالتذمر :

ما مقامي بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود

ما هو موقفه من علاقة الدين بالدولة ؟

ها هو أحد ممدوحيه ينتصب ممثلاً للحق ومنصوراً بالعناية الالهية :

وقد تيقن أن الحق في يـده   وقد وثقن بـأن الله ناصره

ما هو موقفه من علاقة القومية بالدولة ؟

قال في رثاء يماك التركي مملوك سيف الدولة :

وإن الذي أمست نزار عبيده   غني عن استعباده لغريب

ومن المعروف أن المماليك لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا أعواناً للحاكم، فهو أثناء رثائه لهذا المملوك التركي يذكر سيف الدولة بضرورة الاستغناء عن الأجانب، والاكتفاء بالعرب في سياسة الدولة .

هل كانت العشيرة وحدة سياسية قائمة بذاتها ؟

يلاحظ المؤلفان «أن العشيرة كيان سياسي مستقل إلى حد كبير، فالعشيرة لها حق التحالف مع سواها وإرسال الوفود المفاوضة، تعلن الحرب والسلم فتقاتل كلاب تميماً وتتحالف مع سواها لتقاتل العشائر الأخرى أو لتتصارع مع سيف الدولة أو تغير على الكوفة، خارجة على الخلافة العباسية، وقشير وبلعجلان تدخلان في حلف مع كلاب وتنضم نمير إلى الحلف، ثم تتدارك نفسها وترسل وفداً مفاوضاً طلباً للصلح من سيف الدولة . ومن هو سيف الدولة ؟ إنه من بني حمدان، يعتزون به ويقودهم ويسودهم الناس . وما الخلافة العباسية ؟ إنها وإن كانت ذات صبغة إسلامية، دولة هاشم وقريش فالعشيرة داخلة في صورتها (ص ٢٣٨) .

قال المتنبي في صباه مشيداً بما لممدوحه من أثر على عشيرته وبماله من مواقع ضد العشائر الأخرى :

ترابه في كلاب كحل أعينها   وسيفه في جناب يسبق العذلا

هل كان المتنبي يطالب بالتحول عن النظام القبلي إلى آخر أكثر تطوراً منه ؟

يرى المؤلفان «أن العشائر مع تمتعها بحقوق السيادة المحلية تدخل في نطاق دولة كبيرة هي الدولة الإسلامية العباسية، إما عن طريق الاعتراف بسلطان بغداد المباشر، أو عن طريق الاعتراف بسلطان إحدى دول الطوائف المؤيدة للخلافة العباسية كدولة الحمدانيين . ولكن هذا الانتساب إلى الدولة العامة لا يطوره المتنبي فيدعو إلى إلغاء الدائرة العشائرية واتصال المواطن بدولته مباشرة من غير وساطة عشيرته، بل يحافظ على التوزيع العشائري، وكل ما يطالب به العشائر أن تعرف من تحارب ومن تحالف

وأن تلتف حول أمير كفء كسيف الدولة وألا تعرقل مساعيه . كما يطالبها بأن تبقى عند حدودها فلا تتعداها ، ولذلك يسخر من محاولة كافور إقامة دولة ، وهي فعلاً أشبه بالدولة ، ولكنه يقصد ألا تتمادى فتتطلع إلى الإغارة على بلاد لا تقع في منطقة نفوذها البشري كالكوفة ، وألا تتمرد على الدولة العباسية وتخلع طاعتها خلعاً نهائياً . فالامبراطورية الإسلامية في تصوره إذن لا تمنع العشيرة العربية من أن يكون في يدها زمام أبنائها السياسي وكأنها حزب أو شعب قطري متجمع بحكم الولادة ، كما لم تمنع العشيرة الأعجمية من ذلك حيث مدح الإخشيديين بأنهم من بني طفج بن جف ، وبنو طفج هؤلاء من عشائر الترك المشتغلة بالسياسة . » (ص ٢٤٩)

وفي فصل (الفرد والدولة) يؤكد المؤلفان قيام الدولة عند المتنبي على الفرد العظيم ، مثل قوله في بلاط بدر بن عمار :

مثلك يابدر لايكون ولا يصلح الا لمثلك الدول

ويرى المؤلفان أن للمتنبي أوطاناً ثلاثة : ديني وقومي وصغير .
ولكن حبه التجوال يغلب في أكثر الأحيان على حنينه :

غني عن الاوطان لايستفزني الى بلد سافرت عنه إياب

ويجب أن يتمتع الحاكم ، عند المتنبي ، بالقوة وسداد الرأي والمال وخدمة الرعية ورغم إيمان المتنبي بامتياز العرب في العفو عند المقدرة ، فانه يرى ان « على الحاكم إذا كان متقناً لمهنته ان يقوم بكل مايتلاءم معها ، ولو أدى الأمر الى ان يكون قاسياً كالموت إذا وجد ان العفو سيثير عليه الفتن في المستقبل »(ص ٨٠) قال :

فلا تغررك ألسنة موال تقلبهن أفئدة أعادي

وفي النقد السياسي « يعيب على الملوك ضعفهم » (ص ٢٧٨) . فيقول :

أعلك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم

ماهي معايير الجمال عند المتنبي ؟

المرأة الجميلة عند المتنبي يعلو رأسها شعر فاحم ... » جيدها طويل مرتفع تحليه العقود ، صدرها فيه نهدان كأنهما رمانتان » (ص ٢٨٦) خصرها نحيل ، ولكن ردفها ثقيل . قال :

باتوا بخرعوبة لها كفل يكاد عند القيام يقعدهــا

وكلام الحسناء عذب رقيق تقع الطيور عنــد سماعه ، ويهدهد القلوب ويحرك شغافها . ولعله اقتبس هذه المعايير عن سابقيه ، فقد كان مقلداً في الغزل والشكوى من نار الحب :

ففي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم ابردها

وقلما نجد له قصيدة في الغزل ، وإنما كان يتبع في أول عهده عمود الشعر القديم الذي يجب أن يبتدىء بالغزل ، ثم أخذ يتحرر من هذا العمود إذ يعلن في نهاية القصيدة أن المتغزل بها فداء لممدوحه ، حتى ثار على هذا العمود عندما قال لسيف الدولة :

إذا كان مدحاً فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

ورغم أن وصفه الطبيعة غالباً ما كان مقدمــة المدح ، فإنه لم يقتصر على تقليد سابقيه في وصف طبيعتهم الصحراوية، لقد وقف أمام بحيرة طبرية وقفة الإنسان الذي يرى الكون صراعاً بين القوى المتعددة :

لولاك لم أترك البحيرة والـ ـغور دفيء ، وماؤها شبم

ومن الطبيعي أن يبرع شاعر الفروسية في وصف الحرب . والخيــل سريعة توصل إلى الغايات مهما بعدت ، وهي قوية الحواس ، عظيمة الهمة :

وجرداً مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليا

ما هي القيمة الفنية لربط جمال الخيل بنفعتها ؟

يقول م . سبنسر : « إن السعي الى تحقيق غاية من الغايات المفيدة للحياة

يجعلنا نغفل الصفة الجمالية في هذه الغاية»[1]. بينما يرى الفيلسوف الفرنسي جان ماري جويو (١٨٥٤ - ١٨٨٨) أن الشيء الذي يمكن أن يؤدي لنا بعض الخدمات لا يلبث أن يبدو لنا جميلا.

ويقف المتنبي مبهوراً أمام ما نسميه اليوم بمسرح العرائس:

جارية ما لجسمها روح بالقلب من حبها تباريح

الشعر فن المتنبي الخاص، به ارتقى سلم التاريخ، وعن طريقه أظهر مواهبه. ويرى المؤلفان أنه «الى جانب الموهبة الفذة مثقف واسع الاطلاع، تبرز في ثنايا قصائده معلوماته المتعددة عن تاريخ العرب وأنسابهم وتفرعاتهم القبلية، وعن المذاهب الاسلامية منها وغير الاسلامية، وعن قواعد اللغة حتى يستخدم النحو في تشبيهاته وفي تكوين صيغه، فالرجل العملي الفعال يمضي ما يريد وينفذه فوراً فيصبح من الأفعال الماضية وإن لم تلق عليه الجوازم:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم»(٢)

ونجد في نهاية باب (الأخلاق) ملاحظات نفسية، كان يمكن أن يفرد لها باب خاص على قلتها، إذا اعتبرنا علم النفس علماً مستقلاً من العلوم الفلسفية. ها هو المتنبي يبين لنا أن حاسة الذوق هي التي تعطي بعض الأشياء طعومها:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً بــه الماء الزلالا

وبعد، فما كان ينقص الكتاب إلا باب المنطق. فهـــل يمكن اعتبار تشبيهاته ضرباً من القياس؟

---

(١) ج. م. جويو، مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة سامي الدروبي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٠.

(٢) المحصول الفكري للمتنبي ص ٣٢٣.